بسم الله الرحمن الرحيم

دروس في
علوم القرآن

دروس في

علوم القرآن

تأليف

الدكتور الشيخ طلال الحسن

حقوق الطبع محفوظة للناشر

دار السيدة رقية للقرآن الكريم

اسم الكتاب: .....دروس في علوم القرآن

تأليف: .....الدكتور الشيخ طلال الحسن

الناشـــر: .....دار السيدة رقية (ع) للقرآن الكريم

الطبعة الأولى: .....١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

الجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ قم المقدسة

Email: info@ruqayah.net

يهدى ثواب هذا العمل إلى روح المرحومين ملا محمد وملا أحمد الخليفة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الدار:

إنّ القرآن الكريم كتاب شامل لجميع جوانب الحياة؛ إذ قد أحاطت نظراته بكافة الميادين الحياتية للبشر، وهو على الرغم من ذلك منهل تربية وخلق لمن أحب الفضيلة والمثل العليا، وفنّ وأدب لمن تذوّق أسلوبه، وعرف بتنوّع أغراضه؛ لذا فقد أفرد العلماء لكل ناحية وجانب منه باباً للبحث والتأليف، فوضعوا من أجلها العلوم المختلفة قديماً وحديثاً، ودوّنوا في ذلك الكتب، وتباروا في ميدان البحث والتدوين الواسع حتى قطعوا أشواطاً بعيدة زخرت بها المكتبة الإسلامية؛ مفتخرة بتراثها المجيد من آثار سلفنا الصالح وعلمائنا الأبرار.

ومن منطلق إغناء المكتبة الإسلامية الشيعية بعلوم القرآن الكريم المتنوّعة المبتنية على الفكر الشيعي، عمدت (**دار السيدة رقية عليها السلام للقرآن الكريم**) ـ كعادتها في نشر كل ما تراه صالحاً في هذا المجال ـ إلى طباعة كتاب (دروس في علوم القرآن) لمؤلفه الدكتور الشيخ طلال الحسن، وهو عبارة عن مجموعة دروس منتظمة ألقاها سماحته على أسماع نخبة من طلاب العلوم القرآنية في دار السيدة رقية عليها السلام للقرآن الكريم، تحوي مباحث في علوم القرآن يستطيع شبابنا المسلم الذي لا يتيسّر له التعمق في الدراسات الإسلامية أن يجد فيها من الثقافة اللازمة له ما يكفيه مؤنة البحث في مراجع هذا العلم، ويجنّبه عناء فهم الأساليب المختلفة المبتنية عليها تلك المراجع.

وفي الوقت الذي تثمّن فيه دار السيدة رقية عليها السلام للقرآن الكريم الجهود التي بذلها سماحته، تتقدم إليه بجزيل شكرها؛ داعية له بالخير والموفقية والسداد، والاستمرار في مشواره العلمي.

ولا يفوتنا أن نتقدم بالشكر والامتنان كذلك إلى جميع الإخوة العاملين في هذه الدار الذين ساهموا في إخراج هذه الحلّة المباركة، وجعلها تحت متناول أيدي القرّاء الكرام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

دار السيدة رقية للقرآن الكريم

مقدَّمة المؤلف:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

وبعد ...

إنَّ الكتابة في علوم القرآن الكريم تستدعي استقراءً وتحقيقات لعناوينه ومعنوناته المتفرِّقة في جملة مصنَّفات مختلفة من الصناعة والمشارب والمناهج، فالهدف ليس تجميعاً للمعلومات كما حاول البعض، وليس محاكماتياً كما حاول البعض الآخر، وإنّما هي عملية تتبعية تحقيقية، قد لاحظنا فيها عدة أُمور، أهمّها:

الأول: إملاء مساحات خلت منها التصنيفات المتوفِّرة في هذا المضمار.

الثاني: عرض أهم النكات الواردة في كل موضوع وعنوان منها.

الثالث: الجمع بين أُسلوبين، الحوزوي من حيث العمق والجودة، والأكاديمي من حيث النظم والترتيب والطولية والوضوح.

وقد لاحظنا أنَّ هنالك عناوين كثيرة بحاجة التعريف بها نظراً لحداثتها، كما هو الحال في الدرسين الأول والثاني وبعض دروس أبحاث الفهم؛ وأُخرى بحاجة للتحقيق كما هو الحال في دروس جمع القرآن وتدوينه والوحي، ونظراً لمحدودية مساحة هذه الدروس فقد اقتصرنا على ما هو المهم من ذلك.

هذا، وقد ارتأينا عرض الدروس ضمن خطة اقتضت عرض الأبحاث التي

تدور حول القرآن في طليعة الدروس، وهي دروس الفصل الأول؛ ثم تلتها بحوث في القرآن الكريم، وهي دروس الفصل الثاني؛ وختمنا بالبحوث الخاصة بفهم القرآن الكريم، وهي دروس الفصل الثالث.

ونحسب أنَّ الدروس الأخيرة في هذه الدراسة هي تُشكِّل انطلاقة جديدة في بحوث علوم القرآن الكريم، حيث لم تجرِ العادة على عرض ذلك فيها، بيد أنّ مقتضى التحقيق هو درجها لتكون المحصلة الحقيقية من وراء دراستنا لعلوم القرآن الكريم هي الوقوف عند بوابة فهمه.

وسيلاحظ القارئ الكريم أنَّ هنالك فرقاً عظيماً بين فهم القرآن ـ فيما نتبنَّاه ـ وبين التفسير والتأويل، وفق عرض مُوجز اقتضته هذه الدراسة تاركين مراجعة التفصيل في المسألة لأبحاثنا المُدوَّنة في أُطروحة الدكتوراه في فهم القرآن ومراتبه.

والحمد لله رب العالمين

الفصل الأول

أبحاث حول القرآن

- **الدرس الأول:** هوية القرآن ومكانته في المنظومة الإسلامية
- **الدرس الثاني:** موارد مرجعية القرآن في العلوم الإسلامية والإنسانية
- **الدرس الثالث:** نزول القرآن
- **الدرس الرابع:** جمع القرآن وتدوينه
- **الدرس الخامس:** حقيقة المكي والمدني وآثارهما
- **الدرس السادس:** أسباب النزول وشأن التنزيل

أولا: أبحاث حول القرآن

الدرس الأول: هوية القرآن ومكانته في المنظومة الإسلامية

القرآن كلمة عربية أصيلة[1]، وهي مصدر على زنة (فعلان)، تأتي بمعنى:

١ ـ القراءة. **٢ ـ الجامع.**

وبناءً على الأول تكون كلمة القرآن مصدراً لـ «قرأ»، وعلى الثاني تكون مصدراً لـ «قرأت الشيء»، أي: جمعت بعضه إلى بعض[2].

وفي ذلك يرى البعض أنّ تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله تعالى لكونه جامعاً لثمرة كتبه[3]، لقوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[4]؛ ولعلّ اللغة تُساعد على المعنى الثاني[5].

---

١ ـ خلافاً لدعوى بعض المستشرقين من أنّها كلمة سريانية أصلها من (قريانه) بمعنى القراءة، وهي دعوى لم تقم على دليل. انظر: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية للدكتور فضل حسن عباس: ٢٥ ـ ٢٦، نشر: دار البشير،الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

٢ ـ انظر:مجمع البيان في تفسير القرآن، ١: ٤١.

٣ ـ انظر: مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني: ٦٦٩، مادة (قرأ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، نشر: انتشارات ذوي القربى، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ

٤ ـ يوسف: ١١١.

٥ ـ انظر: معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ٥: ٧٨ـ ٨٨، تحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون، ١٤٠٤هـ، نشر: اتحاد الكتاب العرب.

ولا يخفى أنّ القرآن الكريم بنكتة كونه تبياناً لكلّ شيء، لقوله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾[1]، يقتضي أن يكون جامعاً لكلّ شيء ولو إجمالاً، وهذه البيانية الشاملة منسجمة مع المعنى الثاني؛ بل إنّ المقاصد المعرفية المتنوّعة الأبعاد للقرآن الكريم تقتضي هي الأُخرى معنى الجامعية لا مجرد القراءة اللفظية والمقاطع الصوتية، وسوف يتضّح لنا هذا المعنى في جملة من أبحاث هذا الكتاب.

هذا فيما يتعلّق بالمعنى اللغوي لكلمة القرآن، وأمّا المراد بها اصطلاحاً فهو الكتاب الإلهي المنزّل على قلب النبيّ الأكرمﷺ، والذي جُمع ودُوِّن في الصدر الأول من الإسلام، وهو عينُه الموجود بين أيدي جميع المسلمين والمتكوِّن من مائة وأربع عشرة سورة، أولها سورة الفاتحة وآخرُها سورة الناس، وهو كتاب معصومٌ من الخطأ ومصونٌ من التحريف بإرادة ربانية.

وقد أصبح اسم القرآن عَلَماً له؛ عِلماً بأنَّ لفظ (القرآن) ورد في أكثر من ستين مورداً في القرآن الكريم، كما وردت ألفاظ أُخرى للقرآن الكريم يراد بها نفس القرآن الكريم مع لحاظ بعض الخصوصيات فيها كـ(الفرقان) و(الكتاب) و(الذكر).

وأما بالنسبة لأهمية ومكانة القرآن في المنظومة الإسلامية؛ فذلك ما يُمكن تبيينه في النقاط التالية:

١ ـ القرآن الكريم يمثل المرجعيةَ الأُولى للإسلام والمسلمين

إنَّ القرآن الكريم يمثل المرجعيةَ الأُولى للإسلام والمسلمين، وتقع في طولِه المرجعيات المعرفية الأُخرى، ولذلك يُسمَّى القرآن الكريم في الروايات بالثقلِ الأكبر، والذي تأتي في طوله مرجعيةُ أهل البيتعليهم السلام الذين سمَّتهم الروايات بالثقل

---

١ ـ النحل: ٨٩.

الأصغر، بالنظر إليهم بما هم منفصلون عن القرآن الكريم، وأما إذا لُوحظت المعيّةُ بينهما، وكونهم تراجمةَ القرآن فالأمر سيختلف تماماً، فهم القرآن الناطق كما جاء في ألسنة بعض الروايات، وها هم أهل الشام لمّا أرادوا أن يجعلوا القرآن حكماً بصفين، قال لهم الإمام علي عليه السلام: ((**أنا القرآن الناطق**))[١].

وعنه عليه السلام: »»**إنّ الله تبارك وتعالى طهَّرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه، وحجته في أرضه، وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا**««[٢].

٢ ـ القرآن الكريم هو مركز الحركة الفكرية والتشريعية في الإسلام

وفي ضوء النقطة الآنفة ينتج عندنا أنّ القرآن الكريم يمثل مركز الحركة الفكرية والتشريعية في الإسلام، وهو الأرضية التي تنطلق منها النظرية والتطبيق، أي سواء على مستوى الهداية، أو على مستوى العمل.

وقد عبَّر القرآن الكريم عن نفسه بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**﴾[٣]، فإنّه لا يهدي الإنسان وحسب وإنّما يهديه للتي هي أقوم، كما أنّه يحمل البُشرى للمؤمنين الذين قرنوا إيمانهم بالعمل الصالح بأنّ لهم أجراً عظيماً.

٣ ـ دوام الحاجة له لصلاحيته لكل عصر ومصر

ولعل من أهمّ نقاط القوة في القرآن التي ارتقت به إلى مكانته العظيمة هي

---

١ ـ ينابيع المودة لذوي القربى، للشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي ١: ٢١٤ ح ٢٠، تحقيق علي جمال أشرف الحسيني، نشر دار الأُسوة، الطبعة الأُولى، ١٤١٦هـ، قم.

٢ ـ الأُصول من الكافي، لثقة الإسلام الشيخ المحدّث أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني ١: ١٩١ ح ٥، تحقيق علي أكبر الغفاري، نشر دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م، قم.

٣ ـ الإسراء: ٩.

دوام الحاجة له، وذلك لحيويته وصلاحيته لكل عصر ومصر، وقد ورد في ذلك أنّه قد سُئل الإمامُ الصادق عليه السلام: ما بالُ القرآنِ لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟ فقال عليه السلام: ((**لأنَّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غضٌ إلى يوم القيامة**))[1]؛ إذن فهو جديد في قراءته وفي الاستماع إليه وفي فهمه أيضاً، يأتي يوم القيامة ـ كما جاء في الأثر ـ بكراً[2].

أسئلة الحاضرين:

س١ ـ كيف تكون مرجعيتنا للقرآن الكريم في الفتن التي تأتي كقطع الليل المظلم؟

الجواب: التعبير عن الفتن بقطع الليل المظلم للإشارة إلى خفاء الحقّ وعدم إمكان الوصول إلى الحلول الصحيحة، كما أنّه تعبير يُشير إلى شدَّة المغريات الدنيوية والشيطانية؛ وهنا نحتاج إلى التذكير بأنّنا مؤمنون ربَّانيون لا نبيع أُخرانا بدنيانا، وهذا التذكير لابدَّ أن تقوم به جهة إلهية غير مطعون بها أبداً، وهنا تكمن أهمية الرجوع للقرآن، فإنّه يُذكرُّنا بانتمائنا إليه وبأنّنا أُناس ربانيون لا تغرينا زخارف الحياة ولا ننصاع للنفس الأمارة بالسوء، وهذه المرجعية الإلهية تُؤدّي دورها ولو بآية البسملة، حيث تذكّرنا بأنّنا لا نبدأ إلا باسم الله، وأنّنا تحت رحمانيته ورحيميته؛ علماً بأنَّ الخطاب موجَّهٌ أولاً وبالذات للعلماء حيث يكون القرآن مخرجاً لهم للخروج بالأُمّة من ظلمات الفتن، وأهل العلم أعلم بمقاصد القرآن الكريم.

---

١ ـ بحار الأنوار، للمجلسي ٩٢: ١٥ ح ٨ .

٢ ـ ورد هذا المعنى في كتاب: شرح دفتر دل (شرح كتاب القلب) للعلامة الشيخ حسن زاده آملي، تأليف الشيخ داوود صمدي آملي، حيث يقول:(فما يكون مودوعاً في الكتاب المجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ولذلك يأتي يوم القيامة بكراً).

س٢ ـ ما هو الطريق أو المقدمات التي نحتاجها لتعلّم علوم القرآن وفهم القرآن؟

الجواب: أما فهم القرآن فسيأتي في الدروس الأخيرة، وأما المقدَّمات الأولية لتلقِّي علوم القرآن فإنّها أُمور يسيرة جداً، الأُولى تحصيل الطهارة المعنوية الظاهرية من الحدثين الأصغر والأكبر، وكذلك الطهارة المادية الظاهرية من الخبث؛ وينبغي استحضار نية القربة من الله تعالى، ونية تحصيل رتبة المُتعلِّم على سبيل النجاة؛ وهي الرتبة الثانية المروية في حديث عن أمير المؤمنين عليعليه السلام حيث يُوصي به كميل بن زياد:((**إنَّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها؛ أحفظ عني ما أقول لك! الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم فيهتدوا، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق فينجوا**))[1]؛ والهمج: الحمقى الذين لا خير فيهم، والرعاع: سفلة الناس.

١ ـ تحف العقول عن آل الرسول، للشيخ الثقة الجليل الأقدم أبي محمد الحسن بن علي بن شعبة الحرّاني: ١٦٩، تحقيق علي أكبر الغفاري، نشر مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ ، قم.

وهنا نود التعرّض إلى الميادين التي يُرجعُ فيها إلى القرآن الكريم، ليتثبَّت عندنا ما ادَّعيناه في الدرس الأول من كون القرآن يمثل المرجعية الأُولى للإسلام والمسلمين؛ وأما الميادين العلمية فهي:

١ ـ اتفقت كلمة علماء المسلمين ومُتعلِّميهم، من الفقهاء والمُتفقِّهين، من المتقدِّمين والمتأخِّرين، على كون القرآن الكريم هو المصدر الأول في التشريع، فلا تجد كتاباً فقهياً إلا وقد سجَّل هذه الخاصِّية للقرآن الكريم أو أشار إليها؛ وأما مقدار الحاجة سعةً وضيقاً فذلك عائد إلى الحدود العلمية لشخصية المجتهد.

٢ ـ اتفقت كلمة الأُصوليين، من المتقدِّمين والمتأخِّرين، على كون القرآن الكريم هو مصدر أولي من مصادر التأسيس لقواعد علم الأُصول، سواء في الأمارات أم في الأُصول العملية، فالقرآن الكريم مانع من العمل بالظن المطلق لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً**﴾[1]، ولولا الدليل الروائي الخاص لشمل هذا الإطلاق القرآني حتى الظن الخاص المعتبر؛ وعليه فكل أمارة ظنية لا اعتبار بها بحسب المنطق القرآني إلا ما خرج بالدليل، وهذا محلّ اتفاق بين الأُصوليين؛ كما أنَّ القرآن الكريم يُؤسِّس للعمل بخبر الثقة وبمفهوم الشرط أيضاً؛ وأما بالنسبة للأُصول العملية فالأدلة القرآنية واضحة على البراءة الشرعية، كما في قوله تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا**﴾[2]، وقوله جل وعلا﴿**مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى**

---

١ ـ يونس: ٣٦.

٢ ـ الطلاق: ٧.

﴿نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[١].

وهكذا الحال نجده في بحوث تعارض الأدلة، حيث يُثبتون مرجعية القرآن في الكشف عن صحة الروايات ذات الموضوع الواحد الصحيحة السند المتعارضة في دلالتها، حيث يأخذون بما وافق القرآن، وأما ما خالفه فهو زُخرف.

٣ ـ اتفقت كلمة المُتكلِّمين الإسلاميين، من المتقدِّمين والمتأخِّرين، على كون القرآن الكريم هو المصدر الأول في دعم وتوكيد النتاج العقلي في إثبات أصل أُصول الدين، وأنّه المصدر الأول في التأسيس للكثير من المسائل الفرعية في أُصول الدين، لاسيَّما ما يتعلَّق منها في المعارف الأسمائية ومسائل المعاد.

٤ ـ اتفقت كلمة المُفسِّرين من علماء المسلمين ومُتعلِّميهم، من المتقدِّمين والمتأخِّرين، على كون القرآن الكريم هو المصدر الأول في الكشف عن نفسه، أو ما يُسمَّى بمنهج تفسير القرآن بالقرآن.

وحتى الأخباريون لا يرفضون مرجعية القرآن البتة، وإنّما هم يقصرون فهم الظواهر القرآنية على المعصوم عليه السلام، وأما القطعي الدلالة منه فلا مناص من العمل به عندهم، وعدم توقّفه على المعصوم.

٥ ـ في علم الحديث أيضاً يحتكمون إلى القرآن الكريم في تصحيح الصحيح والكشف عن السقيم، وقد تقدَّمت الإشارة لذلك في النقطة الثانية.

٦ ـ أما في الفلسفة الإسلامية، وهي على ثلاثة شقوق: الفلسفة المشائية، فإنّها لا تعتمد إلا العقل في الوصول لمطالبها وإيصالها، أي في عالم الثبوت والإثبات ليس هنالك مُدرك وحاكم سوى العقل؛ والفلسفة الإشراقية فإنّها تعتمد الكشف والشهود للوصول إلى الحقيقة ثبوتاً، وأما إيصالها للآخرين في عالم الإثبات فإنّهم يستعينون بالعقل والقرآن معاً، وفلسفة الحكمة المتعالية، أو الحكمة الصدرائية،

---

١ ـ الإسراء: ١٥.

فإنّها تعتمد العقل والكشف والقرآن في الوصول إلى الحقيقة ثبوتاً، وتستعين بالعقل والقرآن في إيصال معارفها للمُتلقِّين في عالم الإثبات.

والمُحصلة: إنَّ القرآن الكريم حاضر إثباتاً في حكمة الإشراق، وحاضر ثبوتاً وإثباتاً في مدرسة الحكمة المُتعالية.

٧ ـ وأما في العرفان الإسلامي، فإنّه ينقسم إلى عرفان نظري يبحث في حقيقة التوحيد وحقيقة المُوحِّد، وعرفان عملي يهتم بالسلوك الفردي للسالك والمُريد من خلال التزكية والتطهير والخروج كُلّياً من دائرة الأغيار إلى الواحد القهَّار، أو الخروج من الدار إلى نفس الديَّار.

فإنَّ النظري منه لا يرى غير الشهود طريقاً للوصول، إلا أنّه يستعين بالعقل والنقل للإثبات، وأما العملي منه فلا يرى للعقل موضعاً، وإنّما هو التزكية والشهود، ولكنهم يرتقون لذلك بعدة وسائط، من أهمّ تلك الوسائط قراءة القرآن وإدامة الأذكار.

والمحصلة: إنّهم جميعاً لا يستغنون عن القرآن الكريم، سواء في أصل التطهير، أو في إيصال معارفهم الشهودية.

٨ ـ في علم التأريخ الإسلامي والإنساني أيضاً، وهو من العلوم الإنسانية، فإنَّ القرآن الكريم يدخل كمصدر أولي، وذلك من خلال القصص القرآني الذي يتجاوز في مساحته ثُلثَ القرآن الكريم.

٩ ـ في العلوم الطبيعية ممَّا يتعلَّق منها بالإعجاز القرآني، فإنَّ القرآن الكريم هو الحاكم من خلال معارفه الكونية على صحَّة النظريات وفسادِها، وليس العكس صحيحاً؛ بمعنى أنَّ القرآن لا يكون محكوماً للنظريات الطبيعية التكوينية، فعندما أثبت العلم الحديث نظرية حركة الأرض وكرويتها أو شبه كرويتها، لأن الأرض بيضوية الشكل وليست دائرية، وأنَّ القرآن الكريم يتعرَّض لذلك ولو بنحو الإشارة،

فإنَّ القرآن يكون مُصحِّحاً لِما طابقه، لا أنَّ العلم الحديث يكون مُصحِّحاً لِما جاء في القرآن.

المحصلة: هي العود للقرآن في تصحيح وتصديق النتاج العلمي القطعي.

١٠ ـ في علوم اللغة العربية، وهي من العلوم الإنسانية، فلا ريب في كون القرآن الكريم هو المرجعية الأُولى في الحكم على قواعده، بل إنَّ الكثير من القواعد النحوية والبلاغية مُبتنية على أصل الشواهد القرآنية، وكل قاعدة لغوية (نحوية أو صرفية أو بلاغية) غير موافقة للقرآن الكريم تكون مرفوضة، ولذلك نجد النحاة يلجؤون للقرآن الكريم أولاً وبالذات لإثبات مطالبهم.

والمحصلة من مجموع ذلك كله: هو مرجعية جميع العلوم الإسلامية للقرآن الكريم، بل ومرجعية جملة من العلوم الإنسانية إليه، كعلم التأريخ وعلوم اللغة العربية، بالإضافة إلى جزء من العلوم الطبيعية ممَّا له صلة بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

أسئلة الحاضرين:

١ ـ كيف أبطل القرآن العمل بالظن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾، ثم يُصحِّح العمل بالخبر الواحد، مع أنّه لا يفيد إلا الظن؟

الجواب: إنما أبطل الظن المطلق ولم يُبطل مطلق الظن، فالظن المقيَّد بالوثاقة والعدالة كما في الخبر الواحد غير مشمول لنفي الظن المطلق، فهنالك ظن مقيَّد وظن مطلق، والمنفي هو الثاني دون الأول، فيكون خارجاً تخصّصاً؛ وأما لو افترضنا شمول النفي له، فإنّه مطلق والآية مُقيِّدة لذلك الإطلاق، فيكون خبر الثقة خارجاً تخصيصاً.

٢ ـ هل للمعصوم أن يُشرِّع أحكاماً غير موجودة في القرآن أو لم يُبلَّغ بها؟

الجواب: هنالك ولايتان تُذكران للمعصومين من أئمة أهل البيت عليهم السلام، الأُولى هي الولاية التشريعية، والأُخرى الولاية التكوينية، وبحسب التحقيق كلا الولايتين

التشريعية والتكوينية ثابتتان لهم عليهم السلام، فيكون التشريع ممكناً منه، بل هو واقع.

علماً بأنَّ المعصوم هو بنفسه يمثل الواقع لا أنّه يكشف عنه، فتكون تشريعاته المحتملة منطبقة على أصل الواقع.

الدرس الثالث: نزول القرآن

لا ريب في نزول القرآن الكريم على قلب النبي الأكرمﷺ كما هو صريح القرآن في قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[1]، وأيضاً في قوله تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾[2]؛ وقد وقع الكلام عند الأعلام في عدة أُمور تتعلَّق بالنزول، وهي:

١ ـ مفردة النزول تدل على علو الجهة المُنزَّل منها القرآن، فهل ذلك العلو مكاني أم زماني؟

٢ ـ ما هي طبيعة النزول بالوحي على قلب النبيﷺ، وماهي الأهداف من ذلك؟

٣ ـ متى بدأ نزول الوحي بالقرآن الكريم؟

٤ ـ ما هو أول شيء من القرآن نزل على قلب النبي الأكرمﷺ؟

٥ ـ ما هو السرّ في اختيار اللغة العربية للقرآن الكريم؟

٦ ـ ما هي الأهداف الحقيقية من نزول القرآن الكريم؟

مفردة النزول:

أما بالنسبة لمفردة النزول فإنّها تدل على العلو ولا ريب، ولكنه علو معنوي وليس مكانياً، فالله تعالى مُطلق في وجوده لا تحدّه جهة، مُحيط بكلِّ شيء علماً، ونزول أمر منه تعبير عن علو مقامه المعنوي، كما هو الحال في رفع أكفّنا في الدعاء، فذلك ليس للدلالة على علو أو ارتفاع مكانه وإنّما لعلو مقامه، وإلا فإنّ الله تعالى موجود في الأرض وفي السماء، كما هو صريح القرآن، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ**

---

١ ـ البقرة: ٩٧.

٢ ـ الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤.

الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[١].

طبيعة النزول:

وأما بالنسبة لطبيعة النزول بالوحي على قلب النبيﷺ، والأهداف من ذلك، فإنَّ النزول قد قُسِّم على قسمين، نزول دفعي جُملة واحدة، ونزول تدريجي نجومي.

بمعنى أنَّ نزول القرآن برمته قد وقع مرَّتين، وقد فُسِّر النزول الدفعي على قلبه الشريف بأنه نزول المعارف الإلهية التي يشتمل عليها القرآن، ونزول أسراره الكبرى على قلب النبي لتمتلئ روحُه بنور المعرفة القرآنية[٢].

وفي قبال ذلك النزول الدفعي الإجمالي كان هنالك النزول التدريجي التفصيلي النجومي، وهو نزول القرآن على قلب النبيﷺ بألفاظه وعباراته المعلومة لدينا؛ وهذا المعنى من التنوّع في النزول يُمكن إيضاحُه من خلال بيان كلمة للإمام الحسينعليه السلام، يقول فيها: ((**كتاب الله عزّ وجل على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء**))[٣].

فيكون النزول التدرجي التفصيلي مُتعلِّقاً بالعبارة والألفاظ، ويكون النزول الدفعي متعلِّقاً بمراتبه الثلاث الأُخر التي تبدأ بالإشارة وتنتهي بالحقائق.

هدف التنوّع من النزول:

أما الهدف من التنوّع في النزول، فيُقال في ذلك بأنَّ النزول الدفعي حصل مرة واحدة؛ لأنَّ الهدف منه هو تزويد النبيﷺ بالمعارف الإلهية وتنويره بنور

---

١ ـ الزخرف: ٨٤.

٢ ـ انظر: علوم القرآن، للسيد محمد باقر الحكيم: ٢٧.

٣ ـ بحار الأنوار، مصدر سابق ٨٩: ٢٠ ح ١٨.

الحقيقية، كما أنَّ النزول التدريجي يهدف إلى تربية الأُمة وترويضها، أو قل: صُنع أُمَّة وبناء حضارة إنسانية قائمة على أساس العدل؛ ومن الواضح بأنَّ تربية الإنسان والأُمّة وترويضهما وإخراجهما من الظلمات إلى النور لا يحصل عادة دفعة واحدة، وإنّما يحتاج إلى مساحات زمنية استغرقت ثلاثاً وعشرين سنة.

وقيل أيضاً بأنَّ من الأهداف الأُخرى للنزول التدريجي هو لتثبيت النبيﷺ في مواقفه وتسديده فيها[1]، وقد استدل لذلك بقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً**﴾[2]؛ كما ذُكرت لذلك أسباب أُخرى يُمكن مراجعتها في بحوث نزول القرآن.

وقفة تأمّل:

إنَّ الأهداف المنظورة من وراء النزول التدريجي قد لُوحظت فيها أُمَّة الإنسان التي كانت غارقة في جاهلية ظلماء، وأما النزول الدفعي فقد رُوعي فيه شخصية الرسولﷺ. وبعبارة أُخرى: إنَّ النزول بقسميه قد رُوعي فيه الجهة المُنزل عليها القرآن، فالمقام العالي لشخص النبيﷺ مكَّنه من تلقِّي القرآن بأرفع مراتبه وبشكل دفعي؛ فهو الإنسان الكامل الذي نال السيادة المطلقة على سائر الأنبياء والمرسلين والأوصياء والأولياء والصالحين، فضلاً عمَّن سواهم من الناس أجمعين.

وقد ورَّث النبي الأكرمﷺ هذا المُعطى القرآني بأرفع مراتبه لعترته الطاهرة، فعن عبد الغفار الجازي عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام قال: سمعته يقول: ((**نحن ورثة كتاب الله ونحن صفوته**))[3]؛ وأما سائر الناس فمقتضى مقامهم بصفتهم مُتعلِّمين استدعى رعاية ذلك بنزول تدريجي يُمكن معه تحقيق الهدف التعليمي

---

١ ـ انظر: علوم القرآن، للسيد محمد باقر الحكيم: ٢٧.

٢ ـ الفرقان: ٣٢.

٣ ـ بصائر الدرجات الكبرى، محمد بن الحسن الصفار: ٥٣٣ ح ٣٣، تحقيق ميرزا محسن باغي، الناشر مؤسسة الأعلمي، ١٤١٤هـ، طهران.

والتربوي لهم، وهذا هو مُقتضى الحكمة الإلهية؛ فناسب المقام الأعلى للنبي نزول القرآن عليه بإشاراته ولطائفه وحقائقه، بل يكفي نزولُه عليه بحقائقه، فالحقائق هي الخزائن الحقيقية لجميع المعارف الإلهية والكونية، وهي المُشار إليها بقوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾[١]، كما ناسب النزول التدريجي لمقام الإنسان المُخاطب بعموم القرآن الكريم؛ وعليه فالوجه في تثبيت قلبه ﷺ بنزول العبارة عليه إنّما رُوعي فيها سائر الأُمة، لِما عرفت من مقام التنزيل.

نعم، إنَّ للنزول التدريجي فوائدَ وحِكماً، منها:

١ ـ تثبيت قلوب المؤمنين، كما عرفت من رعاية مقام المُخاطبين، وكما أشار القرآن لذلك بقوله تعالى: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[٢]، فهو يُمثل إمداداً معنوياً للأُمة.

٢ ـ لرفع شُبهة الجبرية بوقوع الأحداث التي حكاها القرآن الكريم بعد حصولها، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾[٤]، وغيرها من عشرات الآيات التي حكت أحداثاً لاحقة.

٣ ـ إنَّ طبيعة المواقف والنشاطات المُعادية هي طبيعة تدريجية، وتحتاج إلى معالجة ميدانية مستمرة، وهذا ما يُناسب أن يكون النزول تدريجياً لمواكبة الأحداث.

٤ ـ لتعيش الأُمَّة في بيئة النزول بين الخوف والرجاء، فقد كان النزول التدريجي رادعاً للكثير من الناس، بحيث كان الكثير منهم يخشى أن ينزل فيه قرآن

---

١ ـ الحجر: ٢١.

٢ ـ النحل: ١٠٢.

٣ ـ آل عمران: ١٢٣.

٤ ـ المجادلة: ١.

فيكون مذموماً إلى الأبد، كما نزل في أبي لهب، فصار الكثير من الناس آنذاك في حصنٍ تقوائي لا يرجون معه غير رضوان الله تعالى.

بل إنَّ هذا الخوف لم ينقطع، حيث لم يزل صوت القرآن حيَّاً وناطقاً وقابلاً للصدق على مصاديق جديدة، فيدوم بذلك طلب التحصّن بالتقوى لكيلا يصدق على أحدنا عنوان قرآني لاذع، فالقرآن قد ذم أبا لهب عندما رفع يده لضرب النبيصلى الله عليه وآله على وجهه، فقال في حقِّه: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾[1]، وهذا الخطاب لم ينقطع أبداً، فكل من رفع يده بوجه النبي شخصاً أو بوجه قول النبي وفعله وتقريره فالخطاب صادق عليه، وقد ورد في حديث صحيح عن رسول اللهصلى الله عليه وآله أنّه قال: ((**إنما فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني، ومن أحبها فقد أحبني، ومن سرها فقد سرني**))[2]؛ فكيف بمن ضربها على وجهها وهمَّ بحرق دارها، ألا تبَّت يداه وتب!!.

بداية النزول:

لنزول الوحي على رسول اللهصلى الله عليه وآله بدايتان، الأُولى تتعلَّق بما قبل نزول القرآن، والثانية تتعلَّق بنزول القرآن، أما السابقة على نزول القرآن فقد جاء في بعض الأخبار أنَّهصلى الله عليه وآله كان يرعى بعض الأيام غنماً لأبي طالبعليه السلام في شعب مكة، فرأى شخصاً يقول له: يا رسول ! فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرائيل، أرسلني الله إليك ليتَّخذك رسولاً[3].

---

١ ـ المسد: ١.

٢ ـ شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي ٣: ٣٠ ح ٩٧٠، تحقيق السيد محمد الحسيني الجلالي، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة. وأيضاً: فضائل الصحابة، لأحمد بن حنبل: ص ٧٨، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

٣ ـ حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار، للسيد هاشم البحراني ١: ٦٨ ح ٣، تحقيق الشيخ غلام رضا البحراني، نشر مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأُولى، ١٤١١ هـ قم المقدسة.

ثم استمر ذلك إما بلقاء أو برؤيا صادقة حتى حصلت البعثة المباركة ونزول أول آيٍ من القرآن عليه، وذلك عندما بلغ سنّ الأربعين سنة من عمره الشريف؛ وقد وقع خلاف بين كتّاب السير والأخبار في بداية تأريخ نزول القرآن، فقيل: كان مبعثه في يوم الإثنين من شهر ربيع الأول[١]، وقيل بأنه كان في التاسع عشر من شهر رمضان[٢].

وقد رجَّح بعض الأعلام المُحقِّقين يوم السابع والعشرين من شهر رجب الأصب، وهو الموافق لروايات أهل البيت عليهم السلام، والمشهور لدى مدرسة أهل البيت، بل ومحلّ وفاق واتفاق الإمامية الاثني عشرية[٣].

وللتوفيق بين يوم المبعث في شهر رجب وبين المشهور في نزول القرآن في شهر رمضان، هو الفصل بين يوم المبعث وبين نزول القرآن، فنزول القرآن قد تحقَّق بعد البعثة بفترة اختلف فيها، بين قائل بشهرين، وبين قائل بثلاث سنوات، فتكون مدة نزول القرآن على الأخير عشرين سنة[٤].

ولكنّ المسألة بحاجة إلى تحقيق لا يتسع المقام له، إلا أنّنا سوف نذكر تقريباً لعله يكون أرجح للتوفيق بين القولين حول بداية البعثة، وهو أنّ البعثة قسمان: بعثة خاصة وبعثة عامة، أما البعثة الخاصة فقد وقعت في السابع والعشرين من رجب، ولم ينزل فيها قرآن؛ وذلك لأنّ الهدف منها هو التعريف بنبوة النبي صلى الله عليه وآله لنفسه وللخاصة من قومه.

وأما البعثة العامة فهي المصحوبة بنزول القرآن؛ لأنّها بعثة معلنة للناس

---

١ ـ انظر: تأريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي ٢: ١٧ ـ ١٨، نشر مؤسسة نشر ثقافة أهل البيت عليهم السلام، قم المقدسة.

٢ ـ انظر: تأريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري ٢: ٢٩٤.

٣ ـ انظر: التمهيد، للشيخ العلامة محمد هادي معرفة ١: ١٠٦، (نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة الثالثة، ١٤١٦ هـ، قم.

٤ ـ انظر: المصدر السابق ١: ١٠٨.

أجمعين، وقد كان ذلك في ليلة القدر من شهر رمضان، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾[١]، وهي الليلة المباركة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**﴾[٢].

أول آي من القرآن:

وأما أول شيء من القرآن قد نزل على النبي الأكرمﷺ فقد اختلف فيه أيضاً، بين قائل بأنه الخمس الأوائل من سورة العلق: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[٣]، وقائل أنه قوله تعالى:﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾[٤]، وبين قائل بأنّه سورة الحمد ولذلك سُمِّيت بالفاتحة، وهي السورة المقطوع بنزولها مرتين الأولى في بداية البعثة ونزول القرآن، والثانية في المدينة؛ وعلى أيِّة حالٍ، فإنَّ الراجح من هذه الأقوال الآنفة هو الأول.

اختيار اللغة العربية

وأمَّا سرّ اختيار اللغة العربية للقرآن الكريم، فإنّه يُمكن أن يكون ذلك تابعاً لنفس النبي الموجود في بيئة عربية، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾[٥]، وهذا فضلاً عن كون اللغة العربية بنفسها فيها قدرة عالية جداً على استيعاب أكبر قدر ممكن من المعاني القرآنية تعجز عنها اللغات الأُخرى؛ وأما ما يقال بأنّه أُنزل بلغة العرب، وأنّ النبي بُعث من أُمة العرب لضمان

---

١ ـ القدر: ١.

٢ ـ الدخان: ٣.

٣ ـ العلق: ١ ـ ٥.

٤ ـ الحجر: ٩٤.

٥ ـ إبراهيم: ٤.

إيمان العرب به، فلو بُعث النبيﷺ في غير أُمة العرب ونزل القرآن بغير العربية لما آمن العرب لشدة تعصّبهم لقوميتهم ولغتهم.

أقول: إن هذا الكلام غير صحيح ولا قيمة علمية له، فما من أُمة إلا وهي متعصبة لقوميتها ولغتها.

الهدف من نزول القرآن

١ ـ إنَّ فهم القرآن الكريم يتأثر بمجموعة من القضايا منها معرفة الهدف من نزوله، فإنَّ المعنى القرآني ومقاصده لا تنفكّ عن الارتباط بهدف نزوله، فمثلاً لو قرّرنا بأنَّ الهدف الأساسي من نزول القرآن هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فإنَّ هذا الهدف سوف يؤثر كثيراً في طبيعة الخطاب القرآني؛ بمعنى أنَّ الخطاب لابدَّ أن لا يخرج عن الهدف، وبالتالي ليس من الممكن أن يشتمل القرآن على آية تُسهم في إضلال الإنسان، ليس لأنه معصوم، بل لأنَّ ذلك يتعارض مع الهدف الحقيقي للقرآن.

وعندما نتعاطى مع قاعدة قرآنية تنصّ على كون القرآن الكريم: ﴿**تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[1]، فلابد أن نفهم أنّه تبيان لكل شيء في ضوء الهدف من القرآن؛ أي أنّه تبيان تام فيما يرتبط بالهدف المنظور، وليس تبياناً لِما هو خارج عن الأهداف الحقيقية من النزول.

وهكذا لو قرّرنا بأنَّ الهدف من نزول القرآن هو تربية الإنسان والأُمّة فذلك لابدَّ أن ينعكس على فهمنا من ظاهرة التكرار في القرآن، لاسيَّما في القصص القرآني، فلا يُقال بأنَّ الهدف من التكرار هو إرساء الجانب البلاغي، وإنّما لابدَّ من الالتزام بحيثيات الهدف من النزول، وعندئذٍ ينبغي القول بأنَّ الهدف من تكرار القصص القرآني هو إرساء الجانب التربوي، وهكذا تحفظ الهدف الحقيقي لنزول القرآن.

---

١ ـ النحل: ٨٩.

إذن للهدف القرآني صلة وثيقة في توجيه المعاني الحقيقية للنصوص القرآنية، بل للهدف صلة وثيقة أيضاً بتعميق علاقتنا بالقرآن الكريم، فلو ضعفت علاقتنا بالقرآن فذلك سينعكس أولاً وبالذات على مقدار تعاطينا مع القرآن، ولعلَّ ما نراه من العزوف الكبير من قبل الأُمّة عن القرآن في مسألة التعاطي والتفاعل مع القرآن يعود بالدرجة الأساس إلى عدم فهم الأُمّة للهدف الحقيقي من النزول، فالكثير من البسطاء يظنون بأنَّ القرآن الكريم إنّما نزل لِيُحقِّق الإعجاز ولكي يتحدَّى المُكذِّبين له، وبالتالي فمع التصديق به سينتهي دور القرآن الكريم!

مع أنَّ القرآن الكريم هو دستور الإنسان الكامل، والشرط الحتمي في الوصول إلى أرفع المراتب المعرفية والمعنوية، ولذلك ولأجل أن لا نقع في أخطاء تأريخية تنأى بنا عن القرآن الكريم ينبغي علينا الوقوف بدقّة عند موضوع الهدف من نزول القرآن الذي سوف نتماشى معه في تفسيرنا وفهمنا للقرآن الكريم.

وإذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك ـ فما هو الهدف أو الأهداف المنظورة في نزول القرآن الكريم؟

إنَّ هذه المسألة لخطورتها لم يتركها القرآن جانباً، وإنّما تعرَّض لها بدقة، وهذا ما يعكس لنا أهمية الموضوع، فالقرآن الكريم قد تصدَّى بنفسه لبيان الهدف من النزول ضمن آيات عديدة، ونحن بدورنا سوف نستعرض جملةً منها لنتصيَّد النتائج النهائية منها في تشكيل الهدف الغائي في البيانات القرآنية.

وهنا لتنظيم الأهداف وجدنا من المناسب تقسيمها إلى أهداف جزئية صغرى، وأهداف كلية كبرى.

الأهداف الجزئية أو الصغرى من النزول

الهدف الأول: للإنذار والتذكرة، كما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ**﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[2]، أي القرآن.

---

١ ـ الأنعام: ١٩.

٢ ـ الحاقة: ٤٨.

الهدف الثاني: ضرب الأمثال، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً**﴾[1].

الهدف الثالث: إقامة الحجة والبرهان، كما في قوله تعالى: ﴿**وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[2]، اتبعوه بمعنى أنّه حجَّة عليكم، وكما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً**﴾[3].

الهدف الرابع: ليكون دستوراً في الهداية والنُّظم والتشريع، وللتفريق بين الحقِّ والباطل، كما في قوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾[4]، وفي قوله تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً**﴾[5].

الهدف الخامس: التصديق بالكتب السماوية السابقة عليه، كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم**﴾[6]، والمراد من قوله: ﴿**بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ**﴾، هو لما قبله من الكتب السماوية؛ وهكذا يُمكن سوق أهداف جزئية أُخرى.

الأهداف الكلية أو الكُبرى من النزول

وأما الأهداف الكلية والكبرى من النزول فتكمن في أمرين مهمين، هما:

الهدف الأول: إيجاد التغيير الجذري في الإنسان والأُمة، وذلك من خلال إخراجه من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ**

---

١ ـ الإسراء: ٨٩.

٢ ـ الأنعام: ١٥٥.

٣ ـ النساء: ١٧٤.

٤ ـ البقرة: ١٨٥.

٥ ـ الفرقان: ١.

٦ ـ المائدة: ٤٨.

السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ**﴾[2]؛ وهذا هو الدور الأساسي والهدف الحقيقي الذي تصبّ جميع الأهداف الجزئية الآنفة الذكر فيه.

وأما سياسية التغيير فقد أرشدنا القرآن الكريم إلى مجموعة آليات ومقدمات تمثل قواعد قرآنية، من قبيل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[3].

الهدف الكبروي الثاني: ضمان السعادتين للإنسان في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**﴾[4]، و قوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[5].

أسئلة الحضور

١ـ كيف نتصرَّف بالظواهر القرآنية التي فيها شيء من اللوم والعتاب للمعصوم، وربما في البعض منها ما هو أكثر من العتاب؟

الجواب: الظواهر القرآنية وإن كانت حجة بنفسها إلا أنَّ غير الموافق منها للمقطوع به عقلاً ونقلاً يُتصَّرف فيه؛ بمعنى حمله على المعنى المجازي مثلاً، فيكون الخطاب موجَّهاً لسواهم، أو يكون التصرّف بالمعنى بما يناسب مقام

---

١ ـ المائدة: ١٦.

٢ ـ البقرة: ٢٥٧.

٣ ـ الرعد: ١١.

٤ ـ الإسراء: ٩.

٥ ـ النحل: ٩٧.

المعصوم، كما في مسألة المعصية والذنب والغواية، فيُقال في ذلك بما لا يلزم منه القدح بعصمتهم عليهم السلام.

٢ ـ هنالك من يثير شبهة حول الشيعة بأنهم يقولون إنَّ جبرائيل أخطأ في إيصال الرسالة، فبدلاً من إيصالها للإمام علي أخطأ فأوصلها إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله.

الجواب: نحن نحترم عقولنا، والاعتقاد بهذا أمر يستدعي إلغاء عقولنا؛ لكي نصدِّق بأنَّ جبرائيل لم يستطع أن يُميِّز بين رجل عمره أربعون سنة وبين فتىً صغير لم يتجاوز العاشرة من عمره.

الدرس الرابع: تأليف القرآن وتدوينه

كان القرآن الكريم يُحفظ في الصدور ويُكتب على ألواح من اللخاف والعسيب والرقاع والأكتاف والأقتاب[1]، وهذا هو المقطوع به لدى الفريقين في حفظ القرآن وكتابته، حيث كانت سوره مُتفرِّقة غير مجموعة في كتاب يشرع بآية معينة وينتهي بأُخرى، وأما آياته فهنالك الكثير من الروايات التي تدل على أنّها انتظمت في مواقعها من القرآن في عهد النبيصلى الله عليه وآله، وإنّما الكلام في نظم السور القرآنية، ومن هنا وقع خلاف في جمع القرآن وتدوينه على النحو الموجود بين أيدينا في نظم سوره، وقد ورد في ذلك خمسة أقوال، وهي:

الأول ـ إنَّ القرآن تم جمعه وتدوينه في عهد الرسولصلى الله عليه وآله، وهو مشهور مدرسة أهل البيتعليهم السلام.

الثاني ـ إنَّ القرآن تم جمعه وتدوينه في عهد أبي بكر بيد أمير المؤمنين عليعليه السلام، وهو مختار جملة من أعلام مدرسة أهل البيت، ومنهم السيد العلامة الطباطبائي[2].

الثالث ـ إنَّ القرآن تم جمعه وتدوينه في عهد أبي بكر، بتكليف منه لبعض الصحابة.

الرابع ـ إنَّ القرآن تم جمعه وتدوينه في عهد عمر، وهو قول ضعيف جداً.

الخامس ـ إنَّ القرآن تم جمعه وتدوينه في عهد عثمان، وهو قول ضعيف أيضاً، حيث خلطوا بين جمع القرآن وبين توحيد المصاحف الثابت كونه في زمن عثمان.

---

١ ـ اللخاف: صفائح الحجارة الرقيقة. والعسيب: هو جريد النخل بعد تجريده من الخوص، والرقاع: مأخوذ من الجلد. والأقتاب: هو الخشب الذي يُوضع على ظهر البعير ليكتب عليه.

٢ ـ انظر: الميزان في تفسير القرآن، للسيد العلامة محمد حسين الطباطبائي ١٢: ١٢٨. نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة.

وقد سيقت لكل قول روايات تأريخية سنحاول درج ما هو مهم منها.

رواية البخاري في جمع أبي بكر للقرآن:

عن زيد بن ثابت الأنصاري قال: قال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إنّ القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقرّاء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله؟!، قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنّك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله فتتبع القرآن فاجمعه... فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره)[1].

رواية جمع القرآن في عهد أبي بكر على يد الإمام علي عليه السلام

روى المتقي الهندي عن محمد بن سيرين قال: لما توفي النبي صلى الله عليه وآله أقسم عليٌّ أن لا يرتدي برداء إلاّ الجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف، ففعل)[2].

رواية اخرى في جمع عمر للقرآن:

روى صاحب (كنز العمال) عن الحسن أنَّ عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله فقيل: كانت مع فلان وقتل يوم اليمامة، فقال إنّا لله، وأمر بالقرآن فجمع، فكان أول من جمعه في المصحف[3].

---

١ ـ صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري ٦: ٩٨، دار الفكر،١٤٠١هـ، بيروت.

٢ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقّي بن حسام الدين الهندي ١٣: ١٢٧ ح ٣٦٤٠٣، نشر مؤسّسة الرسالة، ١٣٩٩هـ.

٣ ـ المصدر السابق ٢: ٥٧٤ ح ٤٧٥٨.

والغريب أنَّ صاحب (كنز العمال) نفسه يروي في نفس الجزء والصفحة نقلاً عن مسند عمر، عن محمد بن سيرين قال:(قتل عمر ولم يجمع القرآن)[١].

رواية في جمع عثمان للقرآن

قدم حذيفة بن اليمان على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأُمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنّما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق)[٢]؛ وهذه الرواية إنّما تدل على أنَّ توحيد المصاحف كان في عصره لا جمع القرآن، حيث وحَّدوا المصاحف على نسخة حفصة.

والمحصِّلة: إنَّ هذه الروايات وغيرها التي جاءت تتحدث عن قصة الجمع في عهد الخلفاء ليست متفقة على صيغة واحدة ولا على مضمون واحد، فهي تنسب الجمع إلى أشخاص مختلفين، كما أنها تختلف في زمان الجمع وطريقته والعهد الذي تم فيه[٣].

---

١ ـ صحيح البخاري، مصدر سابق ٦: ٩٨.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ البيان في تفسير القرآن، آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي: ٢٤٧ ـ ٢٤٩، نشر مؤسسة إحياء

جمع القرآن في عهد رسول الله تحليلياً

لا ريب بأنَّ جمعَ القرآن بمعنى حفظه قد حصل في عهد الرسول، حيث كان هنالك حفظة للقرآن في عهدهﷺ، فضلاً عن كونهﷺ كان أول حفظة القرآن، قال تعالى: ﴿**سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى**﴾[1].

وأما جمع آيات السورة الواحدة في السورة فهو ما أكَّدته المدونات التأريخية، حيث كان يأمرﷺ بوضع الآية الكذائية في موضع نزولها[2]، فضلاً عن وجود الأسباب الموضوعية لجمعه وتدوينه في حياة النبي.

وعلى أيِّة حال، فإنَّ التحقيق في مصادر الحديث والتاريخ يقتضي الجزم بأنَّ القرآن كان مجموعاً في مصحف منذ عهد النبيﷺ، وأنّ هنالك أكثر من نسخة منه، نسخة في بيت النبي وأُخرى في مسجده، ونُسخ أُخرى عند مجموعة من الصحابة ممَّن كان لا يشغلهم الصفق بالأسواق عن القرآن، وهذا فضلاً عن كونه محفوظاً في صدور العديد من الصحابة من قبيل أُبي بن كعب وعبدالله بن مسعود وابن عباس، فضلاً عن حفظ أهل بيت النبي له.

أو قل بأنَّ طبيعة الأشياء تدل بشكل واضح على أن القرآن قد تم تدوينه في زمن النبيﷺ، والمراد من طبيعة الأشياء: هي مجموع الظروف والخصائص الموضوعية والذاتية المسلّمة واليقينية التي عاشها النبي ﷺ والمسلمون والقرآن أو اختصوا بها، مما يجعلنا نقتنع بضرورة قيام النبيﷺ بجمع القرآن في عهده[3].

تراث الإمام الخوئي، قم المقدسة.

١ ـ الأعلى: ٦.

٢ ـ انظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي ١: ١٦٩، ضبطه وصحَّحه محمد سالم هاشم، منشورات ذوي القربى، الطبعة الثانية، ١٤٢٩ هـ، قم المقدسة. وأيضاً: التمهيد، مصدر سابق ١: ٢٧٦.

٣ ـ علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم: ١٠١.

وأما هذه الظروف والخصائص فهي:

١ ـ يعتبر القرآن الكريم الدستور الأساسي للأمة الإسلامية، على المستويين العقيدة والشريعة، وهذا ما استدعى حفظ هذا الدستور من خلال تدوينه ونشره أيضاً، لاسيَّما أنَّ المسلمين لم يكونوا يملكون في صدر حياتهم الاجتماعية شيئاً من القدرات الفكرية والثقافية في مختلف الميادين التي يخوضها الفكر الإنساني غير القرآن الكريم، فهو المحتوى الروحي والفكري والاجتماعي لهم.

٢ ـ إنَّ الصحابة الذين عرفوا بحفظ القرآن، مهما بلغوا من الورع والتقوى والأمانة والإخلاص فهم لا يخرجون عن كونهم أشخاصاً عاديين يعتورهم الخطأ والنسيان، كما أنّ ظرفهم التأريخي وطبيعة المسؤولية الملقاة على عاتقهم كانت تعرضهم للاستشهاد والقتل، والانتشار في الأقطار الإسلامية بغية الدعوة لله سبحانه، وكل هذه الأمور التي كانت متوقعة تصبح خطراً على النص القرآني إذا ترك مرتبطاً في حفظه بهذه الوسيلة ومرتهناً بهذا الأسلوب، فلابد من تدوينه ونشره بينهم.

٣ ـ كان الرسول صلى الله عليه وآله يعيش مع الأمة في آمالها وآلامها، مدركاً لحاجاتها وواعياً للمسؤولية العظيمة التي تفرضها طبيعة الظروف المحيطة بتكوينها والأخطار التي تتهددها، فما لم يُحفظ القرآن ويُدوَّن في حياته صلى الله عليه وآله فإنَّ القرآن سوف لن يكون في مأمن من الأخطار، لاسيَّما وأنّه كان صلى الله عليه وآله على معرفة بتأريخ الرسالات الإلهية ونهايتها على يد المزوّرين والمحرّفين وتجار الدين.

٤ ـ إنَّ إمكانات التدوين والتسجيل كانت متوفرة لدى الرسول صلى الله عليه وآله حيث لا تعني هذه الإمكانات حينئذ إلا وجود أشخاص قادرين على الكتابة يتوفر فيهم الإخلاص في العمل إلى جانب توفر أدوات الكتابة، وليس هناك من يشك تأريخياً في تمكّن المسلمين من كل ذلك؛ بخلاف البعض ممن يرى أنّ الكتابة آنذاك لم تكن مُيسَّرة، وهذا باطل فإنَّ القرآن يأمرنا بكاتبة الدَّين فكيف بالقرآن؟ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب**

﴿بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ...﴾[١].

بل إنَّ الرجل المسلم كان يأتي بالورق إلى النبيﷺ فيأمر النبي الصحابةَ فينسخوا له القرآن[٢].

وقد أورد البخاري عن الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ: ((أكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل))[٣]؛ فالذي يهتم بكتابة أسماء المسلمين كيف لا يهتم بكتابة القرآن؟

نعم، كان هنالك من يترك القرآن جانباً، فيهتم بالصفق بالأسواق تارة، وبتدوين التوراة تارة أُخرى[٤].

٥ ـ كان الكثير من المسلمين متصفين بعنصر الإخلاص للقرآن الكريم وأهدافه، كما لا يمكن أن نجد من يشك في توفر ذلك لدى النبيﷺ مهما بلغ ذلك الشخص من التطرف في الشك والتفكير؛ لأنَّ النبيﷺ يؤمن بأنَّ القرآن معجزته وبرهان دعوته الذي به تحدى المشركين وهو على هذا الإيمان بالقرآن لابدَّ وأن يحرص على حفظه وصيانته ويكون مخلصاً في ذلك أبعد الإخلاص.

والخلاصة إنَّ هذه العناصر الخمسة: (دستورية القرآن الكريم، والخطر في

---

١ ـ البقرة: ٢٨٢.

٢ ـ انظر: السنن الكبرى، للبيهقي ٦: ١٦.

٣ ـ صحيح البخاري ٤: ٣٣.

٤ ـ يُروى أنَّ عمر ـ كما ينقل السيوطي ـ قد اشترى جلداً وكتب عليه التوراة، فقد أخرج البيهقي عن أبي قلابة أنّ عمر بن الخطاب مرّ برجل يقرأ كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنه، فقال للرجل: أكتب لي من هذا الكتاب. قال: نعم، فاشترى أديماً فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره وبطنه، ثم أتى النبيﷺ فجعل يقرؤه عليه وجعل وجه رسول اللهﷺ يتلوّن، فضرب رجل من الأنصار بيده الكتاب وقال: ثكلتك أمك يابن الخطاب! أما ترى وجه رسول اللهﷺ منذ اليوم، وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب؟! فقال النبيﷺ عند ذلك: إنّما بُعثتُ فاتحاً وخاتماً، وأُعطيتُ جوامعَ الكلم وفواتحه، واختُصِر لي الحديث اختصاراً، فلا يهلكنكم المتهوكون). انظر: الدر المنثور، للسيوطي: ١٤٨.

تعرّضه للتحريف بدون التدوين وإدراك النبيﷺ لهذا الخطر، ووجود إمكانات التدوين، وحرص النبيﷺ على القرآن والإخلاص له)، كل ذلك يُوفِّر اليقين أو الاطمئنان بأنَّ القرآن الكريم قد تم جمعه وتدوينه في زمن الرسولﷺ[1].

وينبغي أن يُعلم بأنّه لم تكن أمام حكومة الخلفاء مشكلة في وجود القرآن، وإنّما كانت المشكلة الحقيقية التي اعترضتهم هي مواجهة هذه النسخ المكتوبة، لأنهم كانوا يعلمون أنّها نسخ قد سُجِّلت فيها أسباب وشؤون النزول، وهذا ما يضرّ بهم، ففي أسباب وشؤون النزول يوجد الكثير ما يخصّ أهل البيت، وهذا هو السرّ في رفضهم نسخة القرآن التي جاء بها علي بن أبي طالبعليه السلام، كما أنّهم نهوا الأنصار أيضاً أن يقدّموا نسخة قرآن على أنّها النسخة المعتمدة، كما أنّهم لم يقوموا بنسخ القرآن المتداول في أيدي الناس وإرسالها إلى الأمصار، لأنّهم لا يريدون اعتماد نسخة معينة، وهكذا بقيت الدولة الإسلامية بلا نسخة رسمية للقرآن طوال عهد أبي بكر وعمر[2].

جمع القرآن على عهد رسول الله روائياً

وأمّا على مستوى الروايات فقد ورد في ذلك الكثير، منها ما هو صريح، ومنها ما هو مُشير، وهي كالتالي:

أولاً: روى قتادة، قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد النبيﷺ؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار: أُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد)[3].

ثانياً: أخرج النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر، قال:(جمعت القرآن

---

١ ـ علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم: ١٠٢ ـ ١٠٤.

٢ ـ انظر: تدوين القرآن، للشيخ علي الكوراني: ٢٣٢.

٣ ـ صحيح البخاري ٦: ٢٠٢، باب القرّاء من أصحاب النبيﷺ.

فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبيﷺ فقال: اقرأه من شهر)[١]؛ ولابدَّ أن يكون المراد من (الجمع) في هاتين الروايتين هو (التدوين)، وليس حفظ القرآن، فليس من المعقول أو المقبول انحصار حفظ القرآن بأربعة أنفار، كما في رواية قتادة، بل الثابت هو أنَّ عشرات بل مئات الصحابة كانوا يحفظون القرآن.

ثالثاً: كانت سورة الفاتحة تسمَّى في عهد النبي بفاتحة الكتاب، فكيف لا يكون مكتوباً في عهده؟،

قال رسول اللهﷺ: (**لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب**)[٢]؛ وفاتحة الكتاب هي سورة الحمد، وقد سُمِّيت بفاتحة الكتاب؛ لأنَّ القرآن أُفتتح بها، فمن أين عُلِم بأنّها فاتحة الكتاب والقرآن لم يُدوَّن بعد؟!

وعن أبي هريرة قال: أمرني رسول اللهﷺ أن أنادي: ((**لا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب**))[٣]؛ وفي (سنن الترمذي): عن عبادة بن الصامت عن النبيﷺ قال: ((**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**))[٤].

رابعاً: وجود مكان خاص للمصحف في المسجد النبوي في عهد النبي، فقد روى مسلم في صحيحه أنه كان يوجد مكان في مسجد النبيﷺ يسمّى (مكان المصحف)، قال: عن يزيد يعني ابن أبي عبيد عن سلمة وهو ابن الأكوع أنّه كان يتحرى موضع مكان المصحف يسبح فيه، وذكر أنّ رسول اللهﷺ كان يتحرى ذلك المكان، وكان بين المنبر والقبلة قدر ممر الشاة)[٥].

---

١ ـ الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١: ١٢٤.

٢ ـ مستدرك الوسائل، الميرزا النوري ٤: ١٥٨، ح ٥.

٣ ـ المصدر السابق ٤، ١٥٨، ح ٨

٤ ـ سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي ١: ١٥٦، ح ٢٤٧، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٥ ـ صحيح مسلم ٢: ٥٩.

خامساً: وأخيراً ما جاء في الخبر المستفيض عند الفريقين، وهو حديث الثقلين، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله عزَّ وجل حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ألا إنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض**))[1]، حيث لا يُمكن أن يوصي بشيء غير موجود أو متوفّر، ولذلك يرى السيد الخوئي بأنَّ قوله صلى الله عليه وآله: ((**كتاب الله وعترتي**)) فيه دلالة صريحة على تدوين القرآن، وجمعه في زمان النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنَّ الكتاب لا يصدق على مجموع المتفرقات، ولا على المحفوظ في الصدور[2].

الجمع بين القول الأول والثاني

ويُمكن الجمع بين القول الأول الخاص بمشهور الشيعة حول جمع القرآن وتدوينه في زمن النبي صلى الله عليه وآله، وبين جمعه في زمن أبي بكر وعلى يد علي عليه السلام، وذلك من خلال تصوير كون القرآن المجموع في عهد النبي قد أخذه الإمام علي عليه السلام ورتبه على زمن النزول ووضع في حواشيه أسباب وشأن النزول، فهو مجموع من قبل النبي مجرداً من الشرح والتوضيح، فأضاف له الإمام بعض إيضاحات السنة الشريفة وما يتعلَّق بأسباب النزول.

الجمع بين القول الثاني والثالث

وأما الجمع بين ما جاء في القول الثاني من كون القرآن جُمع في عهد أبي بكر على يد أمير المؤمنين علي عليه السلام، وبين القول الثالث القائل بجمعه على يد أبي بكر نفسه، فذلك من خلال بيان كون أمير المؤمنين علي عليه السلام بعدما أنجز مهمة الجمع

---

١ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣: ٢٦. وأيضاً: سنن الترمذي، مصدر سابق ٥: ٣٢٨، ح ٣٨٧٦.وأيضاً: أُصول الكافي، مصدر سابق ٢: ١١٥، ح ١. وعشرات الكتب الحديثية والفقهية والكلامية.

٢ ـ البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ٢١٦.

والتدوين عرض القرآن على الخليفة لغرض نشره فنظر فيه أبـو بكـر وعمـر فلـم يقبلا فيه لوجود جملة من التوضيحات في جوانب الآيـات وذكـر أسـباب وشـأن النزول، وهذا الأمر لا يتوافق مع ما يريدون، فكان الحل هو أن يستنسـخوا نسـخة عليعليه السلام مجردة من التوضيحات ثم ردّ النسخة الأصلية لعلي.

فتكون المحصلة أنّ القرآن مجموع علـى عهـد رسـول اللهصلى الله عليه وآله بـدون شـرح وتوضيح وذكر لأسباب وشأن النزول، فقام الإمام عليعليه السلام بمهمة درج التوضيحات المناسبة، فقام الخليفة الأول أبو بكر بأخـذ نسـخة الإمـام علـيعليه السلام فجرَّدهـا عـن التوضيحات ونسب جمعها له.

أسئلة الحاضرين:

١ ـ ما هو المشهور في جمع القرآن عند مدرسة الصحابة، وما هو نصـيب القول بجمعه من قبل عمر؟

الجواب: المشهور عندهم أنّه جُمع في عهد أبي بكر، وأمـا جمعـه فـي زمـن عمر فهو قول ضعيف جداً، وأما بالنسبة لعثمان فالمشهور بـل المجمـع عليـه أنّـه وحَّد المصاحف على نسخة واحدة وأحرق سائر المصاحف الأُخرى.

٢ ـ من هو الذي منع تدوين السنة الشريفة؟

الجواب: بحسب المدونات التأريخية أنّ أبابكر قد منع تدوينها بمشورة من عمر.

٣ ـ ربما يُقال بأنّ بعض ما جاء في النقاط الأخيرة من طبيعة الأشياء تعتبر أجوبة خطابية وليست أدلة.

الجواب: إنّما سيقت هذه النقاط بشكلها المجموعي لتُشكِّل لنا قرينة تُثبت لنا أنّ جمع القرآن حصل في زمن النبيصلى الله عليه وآله، فكل نقطة لا تُشكِّل دليلاً مستقلاً لكـي يُقال عن واحدة منها بأنها خطابية، وإنّما هي بمجموعها تُشكِّل دليلاً، المُعبَّـر عنـه بدليل طبيعة الأشياء.

الدرس الخامس: حقيقة المكي والمدني وآثارهما

المكي والمدني اصطلاح يُراد به تقسيم القرآن الكريم إلى سور وآيات مكية وأُخرى مدنية، وقد وجدت في ذلك عدة اتجاهات، وهي:

الاتجاه الأول: يرى بأنّه ترتيب خاضع للترتيب الزماني للآيات، وقد اعتبرت الهجرة النبوية حداً زمنياً فاصلاً بين المرحلتين، وعليه فكل آية نزلت قبل الهجرة فهي مكية، وكل آية نزلت بعد الهجرة فهي مدنية وإن كان مكان نزولها مكة، من قبيل الآيات التي نزلت على النبي حين كان في مكة وقت الفتح، وفي غدير خم.

وهذا الاتجاه هو الأرجح والأنفع في الدراسات القرآنية، كما سيأتي.

الاتجاه الثاني: يرى بأنّ الناحية المكانية مقياساً للتميز بين المكي والمدني، فكل آية يلاحظ مكان نزولها، فإن كان النبي صلى الله عليه وآله حين نزولها في مكة سميت مكية، وإن كان حينذاك في المدينة سميت مدنية.

الاتجاه الثالث: ترى أنّ المقياس في ذلك هو أشخاص المخاطبين، فالمكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة[1]؛ وهو أضعف الاتجاهات، لأنّه يقوم على أساس خاطئ، وهو الاعتقاد أنّ من الآيات ما يكون خطاباً لأهل مكة خاصة ومنها ما يكون خطاباً لأهل المدينة، وليس هذا بصحيح، فإنّ الخطابات القرآنية عامة وانطباقها حين نزولها على أهل مكة أو على أهل المدينة لا يعني كونها خطاباً لهم خاصة، بل هي عامة ما دام اللفظ فيها عاماً.

وبناءً على الاتجاه الأول فإنّ كل آية في القرآن إما مكية وإما مدنية؛ لأنّها إذا كانت نازلة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة ودخوله فيها فهي مكية، وإن نزلت

---

١ ـ انظر: المدرسة القرآنية: ٧٣ لآية الله العظمى السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، قسم علوم القرآن، بحث المكي والمدني؛ إعداد وتحقيق لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر قدس سره، نشر مركز الأبحاث والدراسات التخصّصية للشهيد الصدر قدس سره، ١٤٢٤ هـ، الطبعة الثانية المحققة، قم. وأيضاً: علوم القرآن.

على النبي في طريقه من مكة إلى المدينة، أو كانت نازلة بعد دخول النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة فهي مدنية، مهما كان مكان نزولها.

وأما على الاتجاهين الأخيرين في تفسير المصطلح فقد نجد آية ليست مكية ولا مدنية، كما إذا كان موضع نزولها مكاناً ثالثاً لا مكة ولا المدينة ولم يكن خطابها لأهل مكة أو أهل المدينة، نظير الآيات التي نزلت على النبي ﷺ في معراجه أو إسرائه. ولأجل ذلك يكون الاتجاه الأول هو الراجح.

وعلى أيّة حال فإنّ لفظ: (المكي والمدني) ليس لفظاً شرعياً حدد النبي مفهومه لكي نحاول اكتشافه، وإنما هو مجرد اصطلاح تسالم عليه علماء التفسير، وما من ريب في أنّ كل أحد له الحق في أن يصطلح كما يشاء.

ثمرة البحث في المكي والمدني

إنّ المهم في بحوث المكي والمدني هو الثمرة العملية المترتبة عليه، وهي على نقطتين:

١ ـ إنّه عنصر مساعد في قبول الناسخ وعدم قبوله، فلو استدل أحد بآية مكية على أنها ناسخة لآية مدنية، فذلك باطل حتماً؛ لأنّ من شروط الناسخ أن يكون متأخِّراً زماناً على المنسوخ لا متقدِّماً عليه.

٢ ـ إنّ التقسيم الزمني للآيات إلى مكية ومدنية يجعلنا نتعرّف على مراحل الدعوة التي مرّ بها الإسلام على يد النبي ﷺ، فإنّ الهجرة المباركة ليست مجرد حادث عابر في حياة الدعوة، وإنّما هي حد فاصل بين مرحلتين من عمر الدعوة، وبالتالي سنتمكن من تقديم دراسات دقيقة حول المجتمعين المكي والمدني من خلال الاستعانة بالنصوص المكية والنصوص المدنية.

كيفية التعرّف على المكي والمدني

اعتمد المفسّرون والمهتمّون بعلوم القرآن للتمييز بين المكي والمدني على

الروايات والنصوص التأريخية، التي تؤرّخ السورة أو الآية وتشير إلى نزولها قبل الهجرة أو بعدها، وعن هذا طريق استطاعوا أن يعرفوا عدداً كبيراً من السور والآيات المكية والمدنية ويميّزوا بينها.

ومن هنا تمكَّنوا أن يُقدِّموا دراسات مهمة حول الخصائص العامة في السور والآيات المكية، والخصائص العامة في الآيات والسور المدنية، ثم جعلوا تلك الخصائص العامة مقاييس يقيسون بها سائر الآيات والسور الأُخرى التي لم يُعرف تأريخها.

فوصفوا المكي بأنَّ سوره وآياته قصيرة وموجزة، مع وجود تجانس صوتي واضح فيها؛ وأيضاً وجدوها تركّز على الدعوة إلى أصول الإيمان بالله والوحي وعالم الغيب واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار.

كما أنهم وجدوا في القسم المدني خصائص عامة، وهي: طول السورة والآية وإطنابها، ومجادلة أهل الكتاب ودعوتهم إلى عدم الغلو في دينهم، والتحدث عن المنافقين ومشاكلهم، والتفصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين السياسية والاجتماعية والدولية.

ولكنَّ هذه المقاييس ما لم تصل بنا إلى رتبة العلم أو الاطمئنان فلا يُمكن القبول بها أو اعتمادها في تعيين المكي من المدني؛ لأنها ليست رواية أو دليلاً معتبراً.

الدرس السادس: أسباب النزول وشأن النزول

المراد من سبب النزول هو الحادثة الواقعة سلفاً قبل نزول الآية التي تتحدث في موضوعها، من قبيل سورة الكوثر، فإنَّ سبب نزولها هو أنَّ العاص بن وائل قد تحدَّث مع النبيﷺ في مكة، فسأله قومه مع من كنت تتحدث؟. فقال: ذلك الأبتر، وكان قد تُوفّي عبد الله بن رسول اللهﷺ، فلم يبق له ولد، فنزلت السورة تُبشِّر النبيﷺ بالنعم الوافرة والكوثر، وتصف عدوّه بالأبتر[1].

إذن فالسبب هو الحادثة السابقة على نزول النصّ، فإذا ما أردنا التوصل إلى فهم القرآن بنحو أفضل فلابدَّ من التحقيق في أسباب نزول النصّ، وهنا ينبغي التنبيه إلى أنَّ سبب النزول ليست وظيفته تفسيرية، وإنّما وظيفته الأساسية تطبيقية، أي تحديد المصداق الأول الذي انطبق عليه النصّ، ولذلك فليس من الصحيح حصر النصّ بمصداقه الأول إلا إذا قامت قرائن قطعية على عدم إرادة غيره، وهذا نادر جداً، وقد تقدَّم منا تطبيق حول قوله تعالى:﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾[2]، حيث قلنا بأنّه نازل بحق أبي لهب، ولكنه قابل للانطباق على كلِّ من رفع يده بوجه النبي ﷺ شخصاً أو بوجه قول النبي وفعله وتقريره، فالخطاب صادق عليه، كما أنّه منطبق أيضاً على من رفع يده بوجه من قام مقام النبي ﷺ أيضاً، فالذين خرجوا على أمير المؤمنين عليعليه السلام يُلاحقهم الخطاب أيضاً، فكل واحد منهم قد تبَّت يداه وتب؛ وقد ورد في حديث صحيح عن رسول اللهﷺ أنّه قال: ((**إنما فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني، ومن أحبها فقد أحبني، ومن سرها فقد**

---

١ ـ انظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق ١٠: ٥٤٩ .

٢ ـ المسد: ١.

سرني))[1]؛ فكيف بمن ضربها على وجهها وهمَّ بحرق دارها، ألا تبَّت يداه وتب؟!

تعدّد أسباب النزول

وهنا ينبغي التنبيه إلى أنَّنا قد نواجه في النصّ الواحد أكثر من سبب للنزول، فلو كان سبب النزول يُشكّل المُعطى التفسيري للزم وجود التنافي بين الأسباب المختلفة، ولكننا لو التزمنا بأنَّ سبب النزول لا يعدو عن كونه وجهاً تطبيقياً يُعين المُفسّر على استجلاء المراد من النصّ لارتفع وجه التنافي بين الأسباب العديدة؛ لأنَّ كلَّ واحد منها يُمثل وجهاً تطبيقياً، وليس هو الوجه التفسيري الذي لا يُراد غيره، وهذا واضح.

الفرق بين سبب النزول وشأن النزول

هنالك فرق دقيق بين سبب النزول وشأنه، فسبب النزول هو تعبير آخر عن الحادثة التي سبقت نزول الآية، وأما شأن النزول فهو الموضوع التي جاءت به الآية، ولتوضيح هذه الفكرة الدقيقة سنمثِّل بآية الولاية، وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[2]، فإنَّ سبب نزولها هو تصدّق أمير المؤمنين علي عليه السلام بخاتمه وهو راكع في صلاته المندوبة، وأما شأن نزولها فهو أعظم بكثير من سببها، وهو إثبات الولاية للإمام علي عليه السلام على سائر المؤمنين، فهي كولاية الله وولاية رسوله.

---

١ ـ شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، للقاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي ٣: ٣٠، ح ٩٧٠، تحقيق السيد محمد الحسيني الجلالي، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة. وأيضاً: فضائل الصحابة، الإمام أحمد بن حنبل: ٧٨، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

٢ ـ المائدة: ٥٥.

أسئلة الحاضرين:

١ ـ هنالك بعض الآيات تتحدث عن موضوع جزئي خاص، فكيف يُمكن تطبيقه على مصاديق جديدة؟

الجواب: كل آية تُشكِّل لنا مفهوماً فإنّه يكون قابلاً للانطباق على مصاديقه الجديدة، فآية: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[1] تُشكِّل لنا مفهوماً غير منحصر بسبب نزولها الذي شكَّل لها مصداقها الأول، فإنّ مفهوم:«أهل الذكر» وإن انطبق على أهل الكتاب بحسب سبب النزول إلا أنه صالح للانطباق على أئمة أهل البيت عليهم السلام، وقد ورد عن الوشاء قال: سألت الرضا عليه السلام فقلت له: جُعلتُ فداك، ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾؟ فقال: ((**نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون**))[2]؛ وهكذا يُمكن أن تطبيق مفهوم: ﴿**أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾على مصاديق جديدة بحسب الحاجة، فالفقهاء العدول من أهل الذكر أيضاً وينبغي الرجوع إليهم في الفتوى، والطبيب من أهل الذكر في مجاله حيث ينبغي للمريض الرجوع إليه في تشخيص مرضه.

وأما بالنسبة للآيات التي لا تُعطينا مفهوماً فإنّها تنحصر بأسباب نزولها، ولكنّ مثل هذه الآيات قليل جداً.

٢ ـ هل إنّ أسباب النزول هي علة النزول التدريجي؟

الجواب: للنزول التدريجي أسباب كثيرة، منها موافقته لأسباب النزول، فلا يُمكن عدّ أسباب النزول علة تامة في ذلك، لاسيَّما وأنّ أسباب النزول لم تصحب الآيات القرآنية جميعاً، وإنّما انحصرت بآيات محدودة.

٣ ـ هل شأن النزول يكون مُفسِّراً بخلاف سبب النزول الذي يُحدد المصداق؟

---

١ ـ النحل: ٤٣.

٢ ـ أُصول الكافي، مصدر سابق ١: ٢١٠، ح ٣.

الجواب: قلنا بـأنَّ الفـارق بـين التفسـير والتطبيـق هـو الفـرق بـين المفهـوم والمصداق، فالتفسـير يتعـاطى مـع المفـاهيم، والتطبيـق يتعـاطى مـع المصـاديق، وبحسب الظاهر إنَّ أسباب النزول تتعاطى مع المصاديق فهي ليست مُفسِّـرة، وأمـا بالنسبة لشأن النزول فإن كان يتعاطى مع المفـاهيم فهـو مُفسِّـر للقـرآن، وبحسـب الظاهر هنالك من شؤون النزول ما هو مُفسِّر ومنها مـا هـو مُحـدِّد للمصـداق فـلا يكون مُفسِّراً.

الفصل الثاني

أبحاث في القرآن

- **الدرس الأول:** الوحي هو المصدر الوحيد للقرآن الكريم/ القسم الأول
- **الدرس الثاني:** الوحي هو المصدر الوحيد للقرآن الكريم/ القسم الثاني
- **الدرس الثالث:** الإعجاز القرآني
- **الدرس الرابع:** الإعجاز العلمي في القرآن
- **الدرس الخامس والسادس:** صيانة القرآن من التحريف
- **الدرس السابع:** الناسخ والمنسوخ
- **الدرس الثامن:** المُحكم والمُتشابه
- **الدرس التاسع:** الظاهر والباطن

ثانيا: أبحاث في القرآن

الدرس الأول: الوحي هو المصدر الوحيد للقرآن الكريم/ القسم الأول

وهنا نود التعرّض إلى مصدرية القرآن الكريم، فهل أنّ القرآن وحياني محض كما هو المقطوع به في عقيدة المسلمين من المتقدّمين والمتأخّرين، أم أنّه وحياني وبشريّ أيضاً؟ وبعبارة أُخرى: هو مركب لاهوتي ناسوتي؛ أم أنّه بشري ناسوتي محض وافق المُعطى الإلهي؛ كما يرى بعض شواذ الأُمة الإسلامية؛ أم إنّه بشري ناسوتي لا صلة له بالوحي والسماء، كما يرى ذلك جملة من المُستشرقين؟

قبل التصدّي للإجابة عن ذلك لابدَّ أن نفهم معنى الوحي لغةً واصطلاحاً ومعرفة أقسامه، ثم التعرّض لبيان وحيانية القرآن ورد الشبهات حول ذلك.

الوحي لغةً:

أما الوحي لغة فكما جاء في (لسان العرب): هو إعلام في خفاء[1].

وفي (معاني القرآن) للنحاس: (الإعلان بالشيء في ستره، فيقع ذلك بالإلهام وبالإشارة وبالكتابة وبالكلام الخفي)[2]، فما تمّ الإعلان عنه بصورة خفية لا يحسُّها إلا المُتلقِّي فهو وحي لغوي.

---

١ ـ انظر: لسان العرب، ابن منظور محمد بن مكرم الافريقي ١٥: ٣٨١ مادة: (وحي)؛ نشر دار صادر، سنة الطبع ١٤١٤هـ، الطبعة الثالثة، بيروت.

٢ ـ معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس ٤: ٨٤ تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، نشر مؤسسة أُم القرى، الطبعة الأُولى، ١٤٠٩هـ، السعودية.

الوحي اصطلاحاً:

وهو الوحي الرسالي، ويُراد به: الوحي المُلقى من قبل الله تعالى على النبي المُرسَل بصورة مباشرة أو بواسطة الملك الأمين المُسمَّى بجبرائيل عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾[١]؛ وقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى**﴾[٢]، أي ذو حصافة في عقله ورأيه[٣]؛ أو ذو قوة وشدة أو ذو منظر حسن[٤].

وهذا الوحي الاصطلاحي هو المائز الأول والحقيقي للأنبياء عن سائر من بلغتهم المعارف الإلهية، سواء كانوا من بلغتهم المعارف الإلهية بواسطة الإلهام أو المنامات الصادقة أو بواسطة التعليم أو بطريق آخر فطري.

والسؤال المهم هو ماذا نُفسِّر أنواع الوحي التي ورد ذكرُها في القرآن الكريم، من قبيل:

١ ـ قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ**﴾[٥]؟

٢ ـ قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[٦]؟

---

١ ـ يوسف: ٣.

٢ ـ النجم: ١ ـ ٧.

٣ ـ انظر: التفسير الصافي، للمولى محسن الفيض الكاشاني ٥: ٨٥، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، نشر مكتبة الصدر، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ، إيران.

٤ ـ انظر: تفسير الجلالين، لجلال الدين محمد بن أحمد المحلّي وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي: ص ٧٠٠، نشر دار المعرفة، بيروت.

٥ ـ النحل: ٦٨.

٦ ـ القصص: ٧.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾[١]؟.

والجواب: أما بالنسبة للوحي إلى النحل فهو وحي غريزي فطري، أي: جعلٌ تكويني مجعول في جبلّة الأشياء[٢]، والذي ينطبق على الأشياء التكوينية فينا، مثل: حركة القلب، فإنّها بوحي إلهي تكويني فطري في أصل الخلقة، ولم نتعلَّمه من الخارج.

وأما بالنسبة للوحي لأُمِّ موسى فإنه يُطلق عليه بالإلهام النفسي الرحماني، حيث يقع للإنسان بشكل إحساس قويّ ولكن قد يخفى عليه مصدره، وقد يعلم بمصدره الإلهي، كما في قصّة أمّ موسى.

وأما بالنسبة للوحي المُلقى من قبل زكريا لقومه فهو الوحي اللغوي؛ لأنّه إعلام بخفاء[٣]، وقد تقدَّم معنى ذلك، في التعريف اللغوي للوحي.

والخلاصة: إنَّ القرآن الكريم قد استعمل الوحي بمعانٍ أربعة، وهي:(اللغوي كما في قصّة زكريا، والغريزي كما في النحل، والإلهام الرباني كما في أُمّ موسى، والوحي الاصطلاحي كما هو حال إيحاء القرآن برمّته للرسول الأكرمﷺ.

بقي أن نعلم بأنَّ القرآن الكريم قد أُوحي للرسول الأكرمﷺ بطريقين، هما:

١ ـ الوحي بلا واسطة، وقد كان أكثر القرآن كذلك.

٢ ـ الوحي بواسطة جبرائيلعليه السلام، وقد كان ذلك في القليل منه.

ولعل من مُشخَّصات الوحي بلا واسطة هو حصول عروض الغشية لهﷺ، وذلك لرؤيتهﷺ عظمة الله وجلاله، أي ظهور أمر الله تعالى له وجلاله وعظمته لا أنه ظهر بنفسه، فإنَّ رؤيته تعالى محال عقلاً على التحقيق.

---

١ ـ مريم: ١١.

٢ ـ انظر: التمهيد، ١: ٢٦، (الوحي في القرآن).

٣ ـ انظر: المصدر السابق ١: ٢٧.

وأما مجيء جبرائيل للنبي صلى الله عليه وآله، فإنّ المستفاد من الروايات والأقوال أنّ جبرائيل عليه السلام جاء على صورة دحية بن خليفة الكلبي إلا مرّتين جاء فيهما على صورته الأصلية، ويُروى بأنّه عليه السلام ما رآه أحد من الأنبياء في صورته الحقيقية غيرَ الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، فقد رآه على حقيقته وهو يملأ الخافقين، مرّة في السماء، ومرّة في الأرض.

قال الفيض الكاشاني في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى**﴾[1]، ("فَاسْتَوَى"، فاستقام، قيل: يعني جبرائيل استقام على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها، فإنّه روي ما رآه أحد من الأنبياء في صورته غير محمد صلى الله عليه وآله مرّة في السماء ومرّة في الأرض)[2].

وقد جاء في أمالي الشيخ الطوسي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال له بعض أصحابنا:(أصلحك الله، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: قال جبرائيل عليه السلام، وهذا جبرائيل يأمرني، ثم يكون في حال أُخرى يغمى عليه؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ((**إنه إذا كان الوحي من الله إليه ليس بينهما جبرائيل عليه السلام، أصابه ذلك لثقل الوحي من الله، وإذا كان بينهما جبرائيل عليه السلام لم يصبه ذلك، فيقول: قال لي جبرائيل، وهذا جبرائيل يأمرني**))[3]؛ ولمراجعة التفصيل في المسألة يُراجع كتاب (حُلية الأبرار) للسيد هاشم البحراني، في الباب الثامن[4].

---

١ ـ النجم: ٧ ـ ٨.

٢ ـ التفسير الصافي، ٥: ٨٥ مصدر سابق.

٣ ـ الأمالي: ٦٦٣، ح ١٣٨٥. لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع دار الثقافة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، قم المقدسة.

٤ ـ حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار، ١: ٧٧ ـ ٧٨. مصدر سابق.

والآن نعود إلى الأسئلة المهمة المتعلِّقة بمصدرية القرآن الكريم.

أما المُجمع عليه من وحيانية القرآن الكريم محضاً فذلك ما نطق به القرآن نفسُه في موارد كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**﴾[1]، قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾[2]؛ وقولُه تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾[3]؛ وغير ذلك من عشرات الآيات.

وأما دعوى وحيانية وبشرية القرآن أو بشريته بما هو موافق المُعطى الإلهي؛ كما هي دعوى الدكتور عبد الكريم سروش، حيث يرى أنَّ القرآن الكريم مجرد تجربة نبوية وافقت المُعطى الإلهي، أي لو أنَّ الله تعالى أراد أن يُوحي إليه قرآناً إلهياً فلن يُوحي إليه بأكثر ممَّا وصل إليه النبيﷺ من خلال تجربته النبوية، بل إنّه يرى أنَّ النبوة ما هي إلا تجربة روحية كشفية يعيشها النبي، ثم يأتي التكليف له بإيصال المعارف التي وصل إليها هو بنفسه، فيكون الفرق بينه وبين العارف هو في التكليف بإيصال المعرف للآخرين، وأما نفس المعارف فكلاهما يصل لها بنفسه، فلا وحي إلهي في المقام.

يقول سروش: (إنَّ الفرق بين الأنبياء وغيرهم من أصحاب التجارب الدينية

---

١ ـ الشورى: ٧.

٢ ـ يوسف: ٣.

٣ ـ النجم: ٣ ـ ٤.

هو أنّ الأنبياء لا يبقون أسرى تجربتهم الشخصية ولا يشغلهم التنعم بها عن أداء دورهم الإنساني، بل إنّهم وبسبب حلول هذه التجربة في عمق ذواتهم يشعرون بوظيفة جديدة يتبدل النبي عندها إلى إنسان جديد يسعى لبناء عالم جديد وإنسان جديد ـ إلى أن يقول: أجل، فإنّ النبوة تتضمن في معناها وذاتها عنصر المأمورية والتكليف وهذا هو الشيء الذي نفتقده في تجارب العرفاء والمتصوفة، وهذه المأمورية السماوية انتهت بالخاتمية، ولكن أصل التجربة والمكاشفة باقٍ في حركة الشعور الداخلي لأفراد البشر على امتداد التاريخ)[1].

إنّ هذا الكلام الخطير جداً والمنحرف مجرد دعوى باطلة لا دليل عليها، بل الدليل قائم على خلافها، فالقائل بهذه الدعوى يُؤمن بالنصّ القرآني، إلا أنه يرى أنه بشري وليس وحياً. وعليه، فنحن نسوق له جملة آيات تقف أمام دعواه الباطلة، وتُثبت لنا وحيانية القرآن الكريم، من قبيل قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾[2]، فالله تعالى يقول: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ**﴾، ولكن سروش يقول: إنّها قصص من النبي نفسه بحسب تجربته، والله تعالى يقول:(﴿**بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ**﴾، ولكن سروش يصرّ على أنّه وحي من قبل تجربته الشخصية وليس من الله تعالى !.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۞ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۞ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۞ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۞ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ۞ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۞ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ**

---

١ ـ بسط التجربة النبوية، الدكتور عبد الكريم سروش: ١٢ ـ ١٣، ترجمة السيد أحمد القبانجي، نشر دار الفكر الجديد، طبعة سنة ٢٠٠٦م، العراق.

٢ ـ يوسف: ٣.

مَا يَغْشَى ۞ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ۞ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[١].

ومع ذلك كلِّه نجد سروش يُماري ويقول هو من عند نفسه.

وهكذا في قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّـهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾[٢]، ولكن سروش لا يرى أنّه من أنباء الغيب، وإنّما هو من أنباء تجربة النبي.

وهكذا في قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[٣]، ولكن سروش يرى أنّها لم تُوحَ إليه من قبل الله تعالى وإنّما هي نتاج تجربته الشخصية؛ وهكذا الحال في عشرات الآيات المباركة التي تفضح أُطروحة سروش الباطلة جملةً وتفصيلاً.

إنَّ الهدف الحقيقي الذي يسير باتجاهه سروش هو إفراغ النبوة من محتواها الحقيقي، وجعل معطياتها بشرية محضة، بحيث يتسنَّى له ولغيره من الناس تلقِّي الوحي كما تلقَّاه الرسول الأكرمﷺ، وبالتالي يصبح من الممكن جداً أن يأتي كل واحد من الناس قد ارتقى معنوياً بقرآن جديد !!!

مع أنَّ النبوة سفارة ربانية يجتبي الله تعالى لها من يشاء من عباده المُخلصين، فيُرسلهم لِيُبلِّغوا آياتِه للناس أجمعين. قال صدر المُتألهين الشيرازي:(والنبوة عطاء إلهي لا مدخل للكسب فيه، والنبي هو المبعوث من الله لإرشاد الخلق وهدايتهم، المخبر عن ذاته وصفاته وأفعاله، وأحكام الآخرة من الحشر والنشر، والثواب للمحسن والعقاب للمسيء)[٤].

---

١ ـ النجم: ١ ـ ١٨.

٢ ـ آل عمران: ٤٤.

٣ ـ هود: ٤٩ .

٤ ـ مفاتيح الغيب، محمد صدر الدين الشيرازي: ٥٧١، نشر مؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م،

وأما دعوى بشرية وناسوتية القرآن وأنّه لا صلة له بالوحي والسماء، ولا صلة له بما يُوافق المُعطى الإلهي، وهي دعوى جملة من المُستشرقين، حيث فسَّروا الوحي بأنّه مجرد إلهامات روحية تنبعث بصورة فُجائية من داخل وجود الإنسان المُسمَّى بالنبي، وأنَّ روحه قد تظهر أمامه متجسِّدة خارجاً فيحسبها ملائكة هبطت عليهم، وما هي إلا تجلِّيات باطنية، وقد استدلّوا على ذلك بأنَّ الله تعالى أجل وأعلى من أن يُقابله أو يتصل به بشر، بل حتى الملائكة غير قادرة على الاتصال بالله تعالى؛ لأن الاتصال به يقتضي القول بتحيّزه ومحدوديته[1].

فالجواب عنها: إنَّ هذه الدعاوى الباطلة إما أن تكون قائمة على أساس شبهة مفادُها أنَّ الاتصال بالله تعالى يكون مادّياً، فلا بدَّ من نفيه لكيلا يلزم القول بتحيّز الله تعالى ومادّيته؛ وإما أن يكون الهدف منها إثارة اللغط للتشكيك بالأديان السماوية عموماً وبالإسلام خصوصاً.

فإن كان الأصلُ فيها شُبهة الاتصال المادّي فلا أحدَ قائل بالاتصال المادّي، وإنما هو اتصال وقرب معنوي، وهذا القرب والاتصال لا يُنكر على كل إنسان فكيف بالأنبياء، وقد عبَّر الله تعالى عن هذا القرب المعنوي بأنّه أقرب إلينا من حبل الوريد، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[2]، ثم إنَّ الإشكال بكون الاتصال به تعالى مادّياً وهو محال لا يُرفع باتصال الله تعالى، ولا أحد يُنكر اتصال الله تعالى بنا، فهل اتصاله بنا يلزم منه التحيّز والمحدودية، اللهمّ إلا أن يُقال بأنَّ الله تعالى خلق الخلق وتركهم دون اتصال بهم لأنه يلزم من اتصاله بهم القول بماديته، وهذا ما لا قائل به.

وعلى أيِّة حال، فإنَّ تفصيل المسألة يُمكن مراجعتها في كتاب التمهيد للشيخ

بيروت.

١ ـ انظر: التمهيد، ١: ٥١، مصدر سابق (الوحي عند فلاسفة الغرب في القرآن).

٢ ـ ق: ١٦.

المحقّق معرفة قدس سره فقد قدَّم في ذلك بحثاً قيِّماً[1].

أسئلة الحاضرين:

١ ـ كيف يكون النبي من الغافلين وهو عالم بالحقائق القرآنية؟

الجواب: لا يُراد من الغفلة في المقام نسبة النقص والقصور إليه‌ﷺ، وإنّما هو تعبير عن عدم معرفة هذه الألفاظ قبل نزولها، من قبيل قولنا بأنَّ الشيء الذي لم يُخلق بعد أنّه خُلق، وذلك لأنه لم يُخلق بعد، فمتى ما خلقه يكون عارفاً بأنّه خُلق، وهذا لا يضر في كونه تعالى عالم بالأشياء قبل أن تُخلق أنها سُتخلق، وأما المعرفة بأنها خُلقت فعلاً فهذا لا يتحقَّق إلا بعد أن تُخلق.

والكلام هو الكلام في المقام، فالنبي لا يعلم بالألفاظ القرآنية النازلة إلا بعد نزولها، وهذا لا يضر في كونه يعرف معانيها العُليا المتمثلة بالحقائق واللطائف والإشارات.

٢ ـ الذين يُشكِّكون بالوحي هل كانوا مطلعين على الآيات القرآنية الدالة على الوحي الإلهي؟

الجواب: إذا لم يكونوا مطلعين عليها فهم ليسوا بعلماء ولا مُحقِّقين، وإن كانوا مطلعين فهم إما أن يكونوا لا يفهمون أو يكونوا مغرضين، ورحم الله المتنبّي حيث يقول:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

٣ ـ ما هو المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾«النجم: ٨»

الجواب: يُراجع كتاب:(من الخلق إلى الحق) للسيد كمال الحيدري.

٤ ـ هل جبرائيل يُوحي السنة الشريفة للنبي كما يُوحي له القرآن؟

---

١ ـ انظر: التمهيد، ١: ٣٢ ـ ٥٤، مصدر سابق (وقفة في مسألة الوحي).

الجواب: المعروف أنّ السنّة الشريفة خاصّة النبي ومنسوبة إليه، غاية الأمر أنّها معصومة من الخطأ بما هي، وإنّما يأتيها الخطأ من النقلة والرواة؛ ولو جرَّدنا النبي من سنّته فإنه لم يبق له إلا التبليغ.

نعم، إنَّ سنّته موضحة للقرآن وشارحة له ومبيّنة للتفاصيل فيه، وهذا لا يمنع أن يكون هنالك شطر من السنة قد أوحيت إليه، كما هو الحال في الأخبار التي تحكي تعليم جبرائيل لهﷺ في بعض الأعمال.

الدرس الثالث: الإعجاز القرآني

الإعجاز من البحوث الوثيقة الصلة بوحيانية القرآن الكريم، كما أنّه من أدلة صدق مدّعي المناصب الإلهية كما سيأتي، وهنا نحتاج أن نقف على تعريف الإعجاز في اللغة والاصطلاح.

الإعجاز لغةً: من يعجز عجزاً، فهو عاجز ضعيف؛ تقول: عجزت عن كذا؛ وتأتي بمعاني أُخرى كثيرة، فالعجز نقيض الحزم[1]؛ التعجيز: التثبيط[2]؛ وأيضاً الإعجاز يأتي بمعنى الفوت والسبق، يقال: أعجزني فلان أي: فاتني؛ قال تعالى: ﴿**غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ**﴾[3]، أي: لا يفوتونه وإن أمهلهم[4].

وهذا المعنى للإعجاز ينطبق على المعجزة أيضاً، غاية الفرق هو أنَّ الإعجاز مصدر، وأما المعجزة فاسم فاعل، وقد اقترنت بالتاء المربوطة للمبالغة.

الإعجاز اصطلاحاً: هو أداء الكلام بطريقة وأُسلوب يصل إلى حدٍّ يفوق فيه كلَّ الطرق والأساليب بلاغة، وهو معنىً شامل لكل كلام، سواء كان المُتكلِّم به الله تعالى أو الإنسان.

وأما المعجزة فقد عُرِّفت من خلال رؤيتين، كلامية وفلسفية، وقد استقى المفسِّرون من ذلك ما ينسجم مع مُتبنياتهم، فكل تعريف للإعجاز والمُعجز مردُّه

---

١ ـ انظر: كتاب العين، ١: ٢١٥. مصدر سابق.

٢ ـ انظر:الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري ٣: ٨٨٣ ـ ٨٨٤، تحقيق أحمد ابن عبد الغفور عطار، نشر دار العلم للملايين، ١٤٠٧ هـ، الطبعة الرابعة، بيروت.

٣ ـ التوبة: ٢.

٤ ـ انظر: مجمع البحرين، الشيخ فخر الدين بن محمد علي بن أحمد الطريحي ٣: ١٢٤، تحقيق أحمد الحسيني، نشر مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، ١٤٠٨هـ الطبعة الثانية.

إلى ذلك[١]؛ فممَّا عُرِّف به كلامياً ما جاء عن الخواجة الطوسي في كتابه (تجريد الاعتقاد)، حيث يراه بأنه: (ثبوت ما ليس بمعتاد أو نفي ما هو معتاد، مع خرق العادة، ومطابقة الدعوى)[٢]؛ وفي شرحه يقول العلامة القوشجي: (هو الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدّي مع عدم المعارضة)[٣].

ويرد عليه: أنَّ الاقتران بالتحدي يجعله منتفياً بدونه، مع أنَّ المُعجز هدفه أكبر من ذلك، ويُمكن أن يُحقِّق هدفه بدونه، وإنّما يُطلب التحدِّي عند تكذيب صاحب الدعوى.

وقد عرَّفها القرطبي في تفسيره: (سمّيت معجزة لأنَّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، وشرائطها خمسة، فإن اختلّ منها شرط لا تكون معجزة ... وشروطها، أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه، وأن تخرق العادة، وأن يستشهد بها مدّعي الرسالة على الله عزّ وجلّ، وأن تقع على وفق دعوى المتحدّي بها، وأن لا يأتي أحد بمثلها على وجه المعارضة...)[٤]؛ وهو تعريف مقبول إلى حدٍّ ما، ويرد عليه تقييدها بمسألة التحدي، فالظاهر من قوله هو سبق التحدِّي منه على أصل المعجز، مع أنّه تابع للتكذيب، فإن وقع تكذيبه تحدَّاهم بالمُعجز.

وعرَّفها الآلوسي بأنّها: (الأمر الخارق للعادة يظهر على يد مدّعي النبوّة عند

---

١ ـ ولا يعني ذلك صيرورة المفسِّر متكلِّماً أو فيلسوفاً، وإنما هي رؤية تفسيرية جذورها كلامية أو فلسفية.

٢ ـ كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، للعلامة الحسن بن يوسف بن علي بن المطهّر: ٢٧٥، منشورات مكتبة المصطفوي، قم. و: «تجريد الاعتقاد» كتاب للخواجة الطوسي.

٣ ـ شرح التجريد «الشرح الجديد في علم الكلام»، علاء الدين علي بن محمد القوشجي: ٤٦٥، الطبعة الحجرية، طبعة الشريف الرضي، بيدار عزيزي، قم المقدسة.

٤ ـ تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ١: ٦٩ ـ ٧٢، نشر مؤسسة التأريخ العربي، ١٤٠٥ هـ، بيروت.

التحدّي)[١]، فيُقيِّد ظهور المعجز بالتحدي، وهو يتعلَّق بالمعاجز الآنية المحدودة، فلا يشمل القرآن الكريم، لأنه قد ظهر قبل التحدي، وعندما كُذِّب النبيﷺ تحدَّاهم به.

وذهب العلامة البلاغي قدّس سرّه إلى أنَّ: (المعجز هو الذي يأتي به مدّعي النبوّة بعناية الله الخاصّة، خارقاً للعادة، وخارجاً عن حدود القدرة البشرية وقوانين العلم والتعلّم، ليكون بذلك دليلاً على صدق النبيّ، وحجّته في دعواه النبوّة ودعوته)[٢]، وهو تعريف وجيه، فيما إذا قصد من العلم والتعليم الحصوليين، وإلا فالعلم الحضوري لا تُعلم قوانينه.

وذهب السيد الخوئي قدس سره إلى أنَّ المُعجز هو:(أن يأتي المدَّعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة، ويعجز عنه غيره، شاهداً على صدق دعواه؛ وإنّما يكون المعجز شاهداً على صدق ذلك المدعي إذا أمكن أن يكون صادقاً في تلك الدعوى، وأما إذا امتنع صدقه في دعواه بحكم العقل، أو بحكم النقل الثابت عن نبي، أو إمام معلوم العصمة، فلا يكون ذلك شاهداً على الصدق، ولا يسمى معجزاً في الاصطلاح وإن عجز البشر عن أمثاله)[٣]؛ وهو تعريف قريب إلى ما ذكره القرطبي.

ويرد عليه: أنَّ الشرط الفعلي للإعجاز هو إعجاز الغير دون أن يُؤخذ فيما يأتي به أن يكون خارقاً لنواميس الطبيعة، فضلاً عن كوننا لا نملك معرفة دقيقة لتفاصيل نواميس الطبيعة؛ لنقول بأنَّ هذا المعجز خارق لها وذلك غير خارق، وما نعرفه من

---

١ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الحسيني البغدادي الآلوسي ١٢: ٣١٠، نشر إحياء التراث العربي، ١٩٩٩م، الطبعة الأُولى، بيروت.

٢ ـ آلاء الرحمن في تفسير القرآن، العلاّمة محمد جواد البلاغي النجفي ١: ٣، نشر مؤسسة البعثة ـ قسم الدراسات الإسلامية، ١٤٢٠ هـ، قم المقدسة.

٣ ـ البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ٣٣.

الظواهر لا تُشكِّل مناطاً حقيقياً في إرساء قاعدة للداخل والخارج من النواميس الطبيعية؛ قال تعالى: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[1]، ونواميس الطبيعة التي أُرسي عليها الوجود الخارجي والحركة الكونية إنّما بحسب حقيقتها لا بظواهرها، والظاهر أنَّ أفضل ما جاء فيما تقدَّم في حدود الرؤية الكلامية هو تعريف الخواجة الطوسي والعلامة البلاغي.

وأما فلسفياً فقد عُرِّف بأنّه: (تحقّق الأمر الخارق للعادة الدالّ على تصرّف ما وراء الطبيعة في عالم الطبيعة ونشأة المادّة لا بمعنى الأمر المبطل لضرورة العقل)[2]؛ وهو تعريف ينسجم تماماً مع المعاجز التكوينية، فلا يشمل القرآن الكريم بوجوده اللفظي، فالتصرف في عالم الطبيعة والنشأة المادية يدلّنا على تكوينية المُعجز، وأما إذا كان المُعجز ينتمي إلى عالم الألفاظ والتدوين، كما هو حال القرآن الكريم، فالأمر مُختلف تماماً، فأيّة طبيعة ومادة تُصرِّفَ فيها من قبل المُعجز؟!

وخلاصة القول: إنَّ الإعجاز أو المعجز يُشترط فيه ما يلي:

١ ـ أن يكون أمراً بيِّناً، لا غامضاً ولا مُبهماً.

٢ ـ أن يكون مقروناً وموافقاً لدعوى إلهية كُبرى، من قبيل النبوة والإمامة.

٣ ـ أن يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله أو بمُعارض له على امتداد الزمن، سواء كان المُعجز خارقاً لنواميس الطبيعة أم لا.

٤ ـ أن يكون دليلَ صدقٍ على مُدَّعاه دون الانحصار بذلك، شرط أن يكون الثاني مُنتمياً للأول، كما لو استند النبي المُرسل على إعجازه في إثبات أمر آخر غير نبوته بعد التصديق به.

٥ ـ أن يكون قابلاً للتحدي به عند تكذيبه، وإلا فمع التصديق به لا معنى

---

١ ـ الروم: ٧.

٢ ـ الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق ١: ٧٥.

للتحدي به.

بهذه الأُمور يكون المُعجز مُعجِزاً إلهياً لا بدَّ من القبول به، ولا يصحّ تكذيبه.

أهميَّة الإعجاز القرآني

لا ريب بأنَّ الإعجاز القرآني يدخل ضمن هذا السير العقلائي في جذب مخاطبيه، إلا أنه له امتيازه الاستثنائي الكامن في أمرين، هما:

الأول: ـ أبديّته وخلوده، فلم يُكتب ذلك لغير القرآن الكريم أبداً، سواء في الأُمور التكوينية أم في الأُمور التدوينية.

الثاني: ـ إنه لم يُمثل هوية القرآن بقدر ما هو امتياز له، بمعنى أنَّ القرآن الكريم في قيمته المعرفية والهدايتية أكبر وأعظم من دوره الإعجازي الكامن فيه، وما إعجازه المتنوّع إلا حلقة مهمة من حلقاته؛ وليست الأهمّ. أو قل بأنَّ إعجازه وسائلي أكثر مما هو هدفي، رغم التزامنا بالحركة النوعية للقرآن على كافة مستوياته الظاهرية، التي ينتمي الإعجاز إليها، والباطنية التي تنتهي جميع المعارف الإلهية إليها، فالسلوك النوعي هو دأب الصناعة النصّية للقرآن الكريم.

من هنا يتضح أنَّ الإعجاز القرآني بحركيَّته النوعية في هداية البشر من جهة، وفي حفظ أعلائيته في صياغة نصوصه إلى درجة بلوغ أعلى مراتب الإعجاز من جهة أُخرى، هو أنّه يمتاز عن أشباهه ـ كالكرامات مثلاً ـ بذلك، لا بما قيل من الاقتران بالتحدّي وما شابه؛ حيث قد فرَّق جملة من الأعلام بين المعجزة والكرامة باقتران الأُولى بالتحدي دون الثانية[1]، ممَّا يعني عدم صحَّة ما قيل بأنَّه: (لا بدَّ للنبي من إقامة المعجز...)، بل لا وجه له، ما دام أنَّ مناط الحاجة هو التحدّي، فبانتفائه

---

١ ـ انظر: كتاب المواقف، للقاضي عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي: ٢٨٨، شرحه المحقق السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، مع حاشيتين عليه أحدهما لعبد الحكيم السيالكوتي، والثانية للمولى حسن چلبي بن محمد شاه الفناري، طبع ونشر مطبعة السعادة، ١٩٠٧م، القاهرة، مصر.

ينتفي موضوع الإعجاز.

وما قيل من كون الدليل الذي يبرهن على صدق النبي في دعواه هو المعجزة[١] إنما يتجّه في صورة وقوع التكذيب له، فيتحدّاهم بالمعجزة، ومع عدم التكذيب له عاجلاً أو آجلاً لا معنى لانحصار علة التصديق به بالمعجزة.

نعم، لو كانت الحاجة للإعجاز موضوعية وليست طريقية يتَّجه القول باللابدية، ولا قائل بذلك؛ ولكنَّ الصحيح في المقام هو ضرورة إقامة المعجز من قبل أصحاب المناصب الإلهية العليا كالنبي والإمام؛ لا لنكتة التحدّي، وإنما لأنَّ للمعجز أثراً نوعياً بخلاف الكرامة فإنَّ أثرها شخصي. ومن الواضح بأنَّ الدعاوى الكبروية المقترنة بالمناصب الإلهية عادة ما تكون حركتها في المجتمع وأثرها عليهم نوعيين لا شخصيين، من هنا يُمكننا تفسير ما يراه البعض من شرطية السرّ في الكرامة وشرطية الإظهار في المعجزة.

قال القرطبي: (والفرق بين المعجزة والكرامة أنَّ الكرامة من شرطها الاستتار، والمعجزة من شرطها الإظهار)[٢]، لمكان النوعية في المعجزة ومناسبتها للإظهار، ومكان الشخصية في الكرامة ومناسبتها للإخفاء.

هذا، وقد صرَّح القرآن الكريم بإعجازه بالجملة عندما تحدَّى الجنَّ والإنس أجمعين على أن يأتوا بسورة من مثله، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[٣]؛ وإنّما أعلن تحديه بعد وقوع التكذيب من قبل قريش وغيرهم، فلو افترضنا عدم وقوع التكذيب وعدم احتمال وقوعه في المستقبل فإنّه لا موضوع

---

١ ـ انظر: علوم القرآن، للسيد الحكيم، مصدر سابق: ١٢٧.

٢ ـ انظر: تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، مصدر سابق ١١: ٣٠.

٣ ـ البقرة: ٢٣.

لأصل التحدّي؛ ولذلك نجد القرآن الكريم ـ رغم اشتماله على أنواع كثيرة من الإعجاز ـ لم يُعطِ لموضوع التحدّي الأولوية بالقدر الذي أعطاه لأهدافه الكبرى الكامنة في الهداية وإنقاذ الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

أنواع الإعجاز القرآني

للإعجاز القرآني أنواع كثيرة استعرضها الأعلام المتقدّمون والمتأخّرون معاً[١]، سنحاول التعريف بأشهرها، وضرب الأمثلة القرآنية المُقرِّبة لها، وهي كالتالي:

النوع الأول: اشتماله على المعارف الإلهية العالية والحقائق الحكمية.

حيث قدَّم في المعارف التوحيدية ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أرفع مراتبها التي لم تصل إليها العقول الراقية والقلوب الواعية مستقلة عنه، وأبلغ ما قدَّمه القرآن توحيدياً هو في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾[٢]، الذي يُقدِّم صورة عميقة للارتباط والمعية بين الذات الأحدية الإلهية البسيطة مع ذوات الكثرة المركبة.

النوع الثاني: اشتماله على نُظم العلاقات الفردية والاجتماعية ومقياس التفاضل.

حيث قدَّم منظومة فكرية وعملية للسير الفردي والاجتماعي للإنسان، على صعيد العبادة والعلاقات الاجتماعية؛ ليكفل له العلاقة الروحية بينه وبين ربِّه من جهة، والعلاقة مع الآخر من جهة ثانية؛ من قبيل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[٣].

النوع الثالث: اشتماله على أصول التربية والأخلاق.

---

١ ـ انظر: إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: ٣٣، تحقيق السيد أحمد صقر، نشر دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة. وأيضاً: انظر: البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق ٢: ٩٢.

٢ ـ الحديد: ٤.

٣ ـ الحجرات: ١٣.

اشتمال القرآن على أصول التربية والأخلاق الإنسانية، حيث نجده يُعرِّف نفسه ثم يذكر بعض أدواره الكمالية، كقوله تعالى: ﴿**قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[١]، وأبلغ من ذلك ما يُقدِّمه بخطاب سهل يسير وكأنه درر معقودة، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[٢]، فالقرآن طريق سالك لسبل السلام الكامنة أُصولها في الفطرة الإنسانية السليمة.

النوع الرابع: الفصاحة والبلاغة.

لقد بلغت فصاحة القرآن وبلاغته مستوىً عالياً من التحدِّي، حتى اقتصر الأمر عليه، فلم يُعهد ذلك من قبل ومن بعد في تحدِّيه اللغوي، فبلغ مرتبة المرجعية الأُولى في لغته وبلاغته؛ وهذا المستوى الإعجازي أشهر من نار على علم، ولعله أكثر أنواع الإعجاز القرآني شهرةً، حتى أوهمت شهرته العريضة انحصار الإعجاز به.

ولا ريب بأنَّ هذا النوع الأساسي في الإعجاز القرآني لا يلتفت إليه كل أحد، حتى وإن كان من أبناء اللغة، وإنّما يُدرك عمقه أهل الاختصاص، الذين يُقرِّرون لنا دقَّة نكاته التي أعجزت أهل الفصاحة البيان من الأوائل فضلاً عن المتأخِّرين منه[٣].

النوع الخامس: إخباره بالمغيَّبات.

وهو من الوجوه المشهورة عنه والتي اقترنت الحالة الإيمانية للأجيال المتأخرة عنه به، لاسيَّما في الأخبار البعيدة المدى والتي اندرج الكثير منها تحت الإعجاز

---

١ ـ المائدة: ١٥ ـ ١٦.

٢ ـ النحل: ٩٠.

٣ ـ انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق ١: ٦٨.

العلمي؛ وأما ما اقترنت بزمن البعثة فقد أسهمت كثيراً في دعم الحالة الإيمانية، من قبيل قوله تعالى: ﴿**الم ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[1]، فيكون القرآن الكريم بإخباره عن المغيَّبات قد مزَّق حجاب المستقبل ومنحنا الفرص الثمينة على الإطلالة عليه من خلاله، وأتاح لنا ثباتاً حقيقياً في حركتنا المستقبلية من خلال معلوماته الدقيقة والعميقة، والخالية تماماً من احتمال الاشتباه والخطأ.

النوع السادس: خلوّه من الاختلاف والتناقض.

فالقرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد المحفوظ لدينا الخالي من كل أنواع الاختلاف والتناقض والتضاد، وقد كشف القرآن عن هذا بقوله تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً**﴾[2].

النوع السابع: تفوّقه الاستثنائي على ثقافة عصره وفكره ومعطياته.

لقد اشتمل القرآن الكريم على معطيات فكرية وثقافية منقطعة النظير تماماً، وهذا كاشف إنّي على كونه لا ينتمي إلى ثقافة عصره، ومن الواضح جداً بأنّ القوانين الطبيعية والتجريبية:(تحكم بأنّ الكتاب مرآة لثقافة عصره ومجتمعه الذي عاشه صاحب الكتاب وتثقف فيه، فهو يُعبِّر عن مستوى من مستويات الثقافة في ذلك المجتمع، أو يُعبِّر على أفضل تقدير عن خطوة إلى الأمام في تلك الثقافة، وأما أن يطفر الكتاب طفرة كبيرة جداً ويأتي ـ بدون سابق مقدمات وبلا إرهاصات ـ بثقافة من نوع آخر لا تمت إلى الأفكار السائدة بصلة ولا تستلهمها، وإنّما تقلبها رأساً على عقب، فهذا ما لا يتفق مع طبيعة الأشياء في حدود التجربة التي عاشها

---

١ ـ الروم: ١ ـ ٤.

٢ ـ النساء: ٨٢.

الناس في كل عصر؛ وهذا ما وقع للقرآن تماماً)[١]؛ ومن معطيات هذا التفوّق الاستثنائي إحاطته بالماضي المجهول،إذ كيف يمكن بحكم القوانين الطبيعية أن يتحدث شخص في كتاب عن أحداث أُمم في الماضي السحيق لم يعشها ولم يعاصرها؟)[٢]؛ وقد تحدّاهم القرآن أن يأتوا بمثله، ولما تيقَّن المشركون بعجزهم وأحسُّوا بثقل هزيمتهم أفصحوا عن ضحالة تفكيرهم فوصموا القرآن بالأُسطورة، كما حكاه القرآن عنهم بقوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾[٣]، مع أنَّ النبي الأكرمﷺ لم يُغادر خارج مكة قبل بعثته الشريفة سوى مرتين في رحلتين قصيرتين جداً إلى الشام[٤]، فمن أين تأتّى له التعلّم عند أحدٍ أو أن يكتب أساطير الأولين؟ فما ذلك منهم إلا نكوص عن الإتيان بالمقابل، ومكابرة عن الاعتراف بالحقّ الذي جاء به، وهذه هي حيلة العاجز في عصر ومصر.

النوع الثامن: اشتماله على حقائق علمية.

وهو ما اصطُلح عليه بالإعجاز العلمي[٥]، حيث تعرَّض القرآن إلى مجموعة أسرار كونية تتعلَّق بالأجرام السماوية وحركة الكواكب، من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[٦]، وقوله تعالى:

---

١ ـ المدرسة القرآنية، مصدر سابق: ٢٨٢.

٢ ـ المصدر السابق: ٢٨٥.

٣ ـ الفرقان: ٥.

٤ ـ سافر النبيﷺ إلى الشام مرتين، الأُولى كانت في طفولته مع عمه وكافله أبي طالب رضي الله عنه، وقد لقي فيها بحيرا الراهب، وقد كان عمرهﷺ تسع سنين، فقال هذا الراهب لعمه:(سيكون لابن أخيك هذا شأن عظيم)؛ والأُخرى كانت في تجارة للسيدة خديجة، وقد كان ذلك في مطلع شبابه وقبل زواجه بها، وقد كان بصحبته ميسرة غلام خديجة، ولم يتجاوزﷺ منطقة أبعد من مدينة بصرى الشامية. جاء ذلك في معظم كتب السيرة النبوية، وفي كتب التأريخ الإسلامي أيضاً.

٥ ـ سيأتي بيانه في البحث اللاحق.

٦ ـ الأنبياء: ٣٣.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[٢]، حيث قدَّره منازل كل ليلة، يبدأ هلالاً ضئيلاً إلى أن يكتمل قمراً مستديراً في الليلة الرابعة عشر من الشهر القمري، ثم يرجع ضئيلاً مثل عِذْق النخلة المتقوِّس في الرقة والانحناء والصفرة؛ لقدمه ويبْسه؛ كما تعرَّض لتراكيب الإنسان ومراحل نشوئه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾[٤]؛ إضافة إلى تعرّضه إلى جملة حقائق أُخرى تتعلَّق بالنبات والجماد، وغير ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[٥]، حيث لم يُعلم بدور الرياح في تلقيح الأشجار إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[٧]، حيث اكتُشف مؤخراً بأنَّ جميع الحديد الموجود في الأرض مصدره النيازك،

---

١ ـ يس: ٣٨.

٢ ـ يس: ٣٩.

٣ ـ المؤمنون: ١٢ ـ ١٤.

٤ ـ الزمر: ٦.

٥ ـ الحجر: ٢٢.

٦ ـ انظر: مقالة: (من أسرار القرآن، الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية، الإعجاز العلمي في تصريف الرياح، تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾«البقرة: ١٦٤»، للدكتور زغلول راغب محمد النجار. منشورة في موقع إسلاميات.

٧ ـ الحديد: ٢٥.

فالأرض خلو من الحديد تماماً[1]؛ وغير ذلك من الأسرار العجيبة.

امتياز المعجزة القرآنية على سائر المعاجز الأُخرى

لا يُنكر على معجزات الرسل السابقين من أنها قد خرقت العادة أو النواميس الطبيعية، وأنّها مارست نوعاً من التحدّي، فكانت شواهد صدق حقيقية على صحة الدعاوى السماوية للأنبياءعليهم السلام، ولكنّها لا تعدو عن كونها معجزات تكونية مُؤقَّتة، فالنار لم تحرق إبراهيمعليه السلام ولكنها عادت إلى خاصيتها بعد ذلك، والبحر قد انشق لموسىعليه السلام ثمَّ عاد إلى طبيعته، فمن رآها فقد آمن بها، ومن لم يرها صارت عنده مجرد خبرٍ قابل للصدق والكذب، فإن شاء صدّقه وإن شاء لم يصدِّقه، ولعل من أعظم أسبابٍ التصديق بجملة منها هو ورودها في القرآن الكريم، وإلا لزمها التشكيك والريبة، لأنها حدثت مرة واحدة ومضت، فكان للقرآن الكريم في إثباتها فضل عظيم.

وأما معجزة النبي الأكرمصلى الله عليه وآله فإنّها معجزة عقلية باقية خالدة، يستطيع كل مطَّلعٍ عليها أن يُعلن بأنَّ محمداً رسولُ اللهصلى الله عليه وآله، وأنَّ معجزته الخالدة، وهي القرآن الكريم؛ لأنَّ معجزته هي عين منهجه ودستوره، وهو باق ما بقي الدهر، وعظمة

---

١ ـ قال الدكتور استروخ وهو من أشهر علماء وكالة ناسا الأمريكية للفضاء في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:(لقد أجرينا أبحاثاً كثيرةً على معادن الأرض وأبحاثاً معمليةً... ولكن المعدن الوحيد الذي يحير العلماء هو الحديد... قدرات الحديد لها تكوين مميز... إنَّ الالكترونات والنيترونات في ذرة الحديد لكي تتحد فهي محتاجة إلى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية... ولذلك فلا يمكن أن يكون الحديد قد تكون على الأرض... ولابدَّ أنّه عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكوَّن فيها). انظر: الإعجاز العلمي لآيات الحديد في القرآن المجيد، الدكتور حسين علي الجبوري: ١٤، نشر مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٠٦م، العراق. وانظر: علي بن نايف الشحود ، باحث في القرآن والسنة، (موسوعة البحوث والمقالات العلمية)، جمع وإعداد المؤلف. منشورة في المكتبة الشاملة. وقد استعرض ذلك الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه:«الأدلة المادية على وجود الله».

إعجازه هو ديمومة الإعجاز فيه، حيث لم يقتصر على أهل زمان نزوله، وهكذا ظلَّ المنهج محروساً بالمعجزة[١]، وظلَّت الدعوة للإسلام والقرآن دعوة حيَّة ناطقة شاهدة على نفسها بالصدق، لا يعيا المتمسّك بها من الوصول إلى الحقّ والحقيقة.

فالامتياز الأول للإعجاز القرآني هو كونه منهج الإسلام ودستوره، وليس أمراً طارئاً جيء به لغرض التحدي للمخاطبين به آنذاك. والامتياز الثاني هو إعجاز الحفظ الإلهي له، فإنَّ الله تعالى قد جرَّب عباده في الحفاظ على الكتب السابقة، لكنهم فشلوا جميعاً ولم يحفظوا الأمانة، ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[٢]، من هنا جاء الحفظ الإلهي للقرآن الكريم. وأما الامتياز الثالث للإعجاز القرآني فيكمُن في أُسلوبه وبيانه وبلاغته، وهذا الامتياز الثالث إنّما يقف عليه أهل الصنعة من أهل اللغة العربية.

قال ابن خلدون: (إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ، في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه، وإنّما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته، فيُدرك من إعجازه على قدر ذوقه)[٣]، وهنالك امتيازات أُخرى للإعجاز القرآني، أشرنا لها في أنواع الإعجاز القرآني، فراجع.

---

١ ـ انظر: معجزة القرآن، للشيخ محمد متولي الشعراوي: ٩، نشر دار المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٨م، الطبعة الأُولى، القاهرة.

٢ ـ المائدة: ١٣.

٣ ـ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ١: ٥٥٢، نشر دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، بيروت.

الدرس الرابع: الإعجاز العلمي في القرآن

أهمية الإعجاز العلمي

اقتصر الإعجاز القرآني في عصر النزول على ما يُسمّى بالإعجاز البياني أو اللغوي، وهو ما يهتم بجانب الفصاحة والبلاغة للقرآن، وقد كان التحدّي ـ بحسب الظاهر ـ مُقتصراً على ذلك؛ ثمَّ ظهرت بعد ذلك أنواع جديدة للإعجاز القرآني مثل الإعجاز الغيبي والتشريعي[1]؛ وقد ظلَّت هذه الأنواع هي الحاكمة في دائرة الإعجاز إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ثم ظهر في العصر الحديث ـ من أواخر القرن التاسع عشر وإلى يومنا هذا ـ الإعجاز العلمي بمختلف أنواعه: الطبي والفلكي والنباتي والرقمي.

وتكمن أهمية الإعجاز العلمي في عدة أُمور، منها:

أولاً: أنّه أعطى مساحة جديدة لدائرة الإعجاز القرآني، وأغلق الأبواب أمام من يرى نفسه غير معنيٍّ بالإعجاز القرآني البياني واللغوي باعتباره ليس من أهل اللغة.

ثانياً: أنّه قدَّم ردوداً علمية دامغة على الأفكار المُشككة بوحيانية القرآن وبحقَّانية الرسالة المحمدية؛ فعرض الحقائق العلمية الدقيقة من قبل نبي أُمِّي في عصر حكمه الجهل والتخلّف، وبنحوٍ يقطع كلَّ شكٍّ باستفادته من الآخرين.

ثالثاً: أنَّه أعطى دُفعات جديدة للبحث في النكات العميقة التي يتضمَّنها القرآن، كما أنه أعطى ضمانات لصحَّة المعطيات العلمية المطابقة للقرآن بنحو

---

١ ـ الإعجاز الغيبي للقرآن الكريم: هو إخباره بحوادث ستقع في المستقبل دون أن يسبقه لذلك أحد، كما هو الحال بالنسبة لإخباره بانتصار الروم في سورة الروم: ٢ ـ ٣. وأما إعجازه التشريعي فهو تحريمه لأشياء أثبتت التجارب العلمية فيما بعد خطورتها على بناء الجسد ودوام العقل، كما في تحريمه للخمر ولأكل الميتة والخنزير، وغير ذلك.

القطع، نظراً لقطعية القرآن الكريم، فصار القرآن دليلاً على صحتها لا العكس.

رابعاً: منح الدعوى للتفكير في الآيات الأنفسية والآفاقية[١] بُعداً عملياً حقيقياً بعد ما كان الأمر نظرياً أكثر ممَّا هو عملي؛ فكان له أثر كبير في تقوية إيمان المؤمنين، ودفع الفتن التي ألبسها الإلحاد ثوب العلم.

المراد من الإعجاز العلمي

الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ـ وفقاً لاصطلاح الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة[٢] ـ هو: إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ ممَّا يظهر صدقه فيما أخبر به عن ربه سبحانه وتعالى[٣]؛ أو هو بحسب تعريف الدكتور زغلول النجار: ما يُقصد به سبقه بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره التي لم تتمكَّن العلوم

---

١ ـ قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾.«فصلت: ٥٣».

٢ ـ أنشئت هذه الهيئة بناء على قرار المجلس الأعلى العالمي للمساجد برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في المملكة العربية السعودية، في دورته التاسعة لعام ١٤٠٤هـ، بوصفها منظمة علمية مستقلة تسعى لإظهار وجوه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تحت مسمى هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وقد عُيِّن أول أمين عام لها الشيخ عبد المجيد بن عزيز الزنداني، وأما حالياً فأمينها الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح؛ ومن أهداف تأسيس الهيئة وضع القواعد والمناهج وطرق البحث العلمي التي تضبط الاجتهادات في بيان الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، وصبغ العلوم الكونية بالصبغة الإيمانية، وإدخال مضامين الأبحاث المعتمدة في مناهج التعليم في شتى مؤسساته ومراحله، والكشف عن دقائق معاني الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالعلوم الكونية في ضوء الكشوف العلمية الحديثة، ووجوه الدلالة اللغوية ومقاصد الشريعة الإسلامية دون تكلف، ومناقشة بحوث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وتدقيقها من الناحيتين الشرعية والكونية وإجازتها، وغير ذلك. انظر: موقع الهيئة الإلكتروني:«www.eajaz.org ».

٣ ـ انظر: موسوعة البحوث والمقالات العلمية، جمع وإعداد علي بن نايف الشحود. منشورة في المكتبة الشاملة.

المكتسبة من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنزّل القرآن[١]؛ أو هو انطباق القرآن مع العلوم التجريبية[٢]، بحيث تُثبت إعجازاً جديداً للقرآن.

جدير بالذكر أنّ وصف الإعجاز العلمي بأنّه علمي نسبة إلى العلم، والعلم: هو إدراك الأشياء على حقائقها أو هو صفة ينكشف بها المطلوب انكشافاً تاماً[٣]، والمقصود بالعلم في المقام هو خصوص العلم التجريبي؛ وقد وردت تعريفات أُخرى للإعجاز العلمي لا تخرج عن فحوى ما تقدَّم.

المجيزون للتفسير العلمي والإعجاز العلمي

لم يلقَ التفسير العلمي والقول بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة الشريفة إجماعاً من قبل مُفسِّري القرآن الكريم والمهتمِّين بعلوم القرآن؛ حيث وقع خلاف شديد في ذلك، بين مُؤيِّد ومانع ومُتوقِّف. أما مجيزو التفسير العلمي والقائلون بالإعجاز العلمي له فهم كُثر، منهم:

١ ـ الشيخ محمد عبده. ٢ ـ الشيخ محمد رشيد رضا. ٣ ـ الشيخ عبد الحميد بن باديس الجزائري. ٤ ـ الشيخ محمد أبو زهرة. ٥ ـ المحدث المغربي أبو الفيض أحمد بن صديق الغماري. ٦ ـ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي. ٧ ـ محمد الطاهر ابن عاشور.

المانعون من التفسير العلمي والإعجاز العلمي

أما المانعون من التفسير العلمي فأبرزهم من المتقدمين أبو إسحاق الشاطبي،

---

١ ـ انظر: مقالة: (الإعجاز العلمي للقرآن الكريم)، للدكتور زغلول النجار. منشورة في موقعه.

٢ ـ انظر: پژوهشی در إعجاز علمي قرآن، للدكتور محمد علي رضائي الأصفهاني ١: ١٨، انتشارات پژوهشی هاي تفسير وعلوم قرآن، ١٣٨٦ش، قم المقدسة.

٣ ـ انظر: الشوكاني، محمد بن علي، (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول)، تحقيق أحمد عزو عناية، تقديم: خليل الميس والدكتور ولي الدين فرفور، دار الكتاب العربي، ١٩٩٩م، دمشق، الطبعة الأولى ١: ٢١.

ومن المعاصرين شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمود شلتوت والأستاذ سيد قطب، والدكتور محمد حسين الذهبي، فضلاً عن جملة من أعلام السلفية الذين اعتبروا التفسير العلمي للقرآن بدعة أو ضرباً من التفسير بالرأي، أو أنّه نتاج بشري اعتمد نظريات بشرية لا تصلح أن تكون مُفسِّرة للقرآن الكريم[1].

وأما حجة هؤلاء في المنع فتكمن في اعتقادهم في كون القرآن الكريم كتاب هداية، وأنّ الله لم ينزله ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف، وأنّ التفسير العلمي للقرآن يُعرِّض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير.

ومقتضى الإنصاف هو القول بوجاهة قول المانعين أعلاه من كون التفسير العلمي للقرآن يُعرِّض القرآن للدوران مع مسائل العلوم، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير، وما يلحق ذلك من محاذير.

إلا أنّ ذلك لا يصلح أن يكون مانعاً من القول بالإعجاز العلمي، فغاية ما يدل على ضرورة الاحتياط في تبنِّي النظريات العلمية في تفسير القرآن، وهذا الاحتياط يلتزم به القائلون بالإعجاز العلمي، بل يعتبرونه من شروط اعتماد النظريات العلمية.

تنبيه: لم تنحصر دائرة المانعين التفسير العلمي والإعجاز العلمي في دائرة الإسلاميين، فهنالك فئة أُخرى من علماء تخصصوا في العلوم الكونية أو الطبية أو غيرها من العلوم التجريبية، لديهم مشكلة تجاه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، فهم لم يستطيعوا أن يدركوا أبعاد النص القرآني، فيتّفقون مع الآخرين في النتيجة، وهي كون القرآن ليس كتاب علوم بل هو وحي إلهي ودستور سماوي يتضمن بعض الإشارات العلمية، لا غير.

---

١ ـ انظر: المواقع الرسمية لكل من الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ صالح بن فوزان الفوزان، والشيخ سعد بن عبد الرحمن الحصين، والشيخ عمر بازمول، وغيرهم.

علماً بأنَّ الكثير من العلماء الغربيين يُمانعون من التفسير العلمي للقرآن والقول بالإعجاز العلمي فيه، وذلك بعدما اصطدموا بحقائق مُرَّة تتعلَّق بالتوراة والإنجيل، حيث وجدوا أنَّ الكثير من النظريات العلمية القطعية تتقاطع من ما جاء في العهدين، ولأجل منع إبطال ما جاء فيهما منعوا من التفسير العلمي للنصوص الدينية مطلقاً، إخفاءً منهم للزيف الذي وجدوه في العهدين من جهة، وإخفاءً لحقَّانية القرآن من جهة ثانية.

ضوابط اعتماد النظريات العلمية التجريبية في التفسير

ذُكر للعمل بالنظريات العلمية التجريبية في تفسير لقرآن عدة شروط وقيود، منها:

١ ـ ضرورة مراعاة معاني المفردات القرآنية المطابقة للغة إبان نزول الوحي، والقواعد النحوية والقواعد البلاغية، خصوصاً قاعدة أن لا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلاّ بقرينة كافية، ومراعاة شأن النزول وأسبابه، ومراعاة القواعد التفسيرية المتعلقة بالناسخ والمنسوخ والظاهر القرآني، وغير ذلك.

٢ ـ وجود دلالة في النصّ القرآني على الحقيقة الكونية المراد إثبات وجود إعجاز علمي بصددها؛ مع ثبوت تلك الحقيقة الكونية علمياً بعد توفر الأدلة التي تحقق سلامة البرهنة عليها، ثمَّ تحقق المطابقة بين دلالة النصّ القرآني وبين تلك الحقيقة الكونية؛ وثبوت استحالة معرفة البشر بتلك الحقيقة الكونية وقت تنزيل القرآن، والتي اكتشفت لاحقاً في الأزمنة المتأخرة.

٣ ـ الابتعاد عن التأويل في بيان إعجاز القرآن العلمي.

٤ ـ عدم جعل حقائق القرآن موضع نظر، بل لابدَّ أن تكون هي الأصل؛ فما وافقها قُبل وما عارضها رُفض.

٥ ـ أن لا يتقاطع التفسير العلمي مع السنة القطعية المفسِّرة للقرآن الكريم، أو الحاكمة بضرورة دينية، وعدم المنافاة مع آيات قطعية الدلالة أو حكم عقلي قطعي.

٦ ـ أن لا يفسر القرآن الكريم إلا باليقين الثابت من العلم التجريبي، لا بالفروض والنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، فلا مكان للحدسيات والظنّيات؛ لأنّها عرضة للتصحيح والتعديل وللإبطال في أي وقت.

من هنا يتضح أنّ التفسير العلمي وما يترتب عليه من القول بالإعجاز العلمي للقرآن، على ما له من أهمية كبيرة على مستوى تفسيره وعلى مستوى الهداية، فإنّه مسلك دقيق وخطير ينبغي التبصر فيه والحيطة والحذر في تبنّي وعرض نتائجه، فإنّ المادة العلمية في التفسير العلمي ليست نتاجاً بشرياً قابلاً للصواب والخطأ، سواء في أصله أم في نقله[١].

منهج الإعجاز ومنهج الإيقاظ

إذا ما جُعل القرآن الكريم طريقاً للابتكار والكشف عن النظريات العلمية، فذلك هو منهج الإيقاظ القرآني لمخاطبيه باتجاه الكشف عن أسرار الوجود ببُعديه الأنفسي والآفاقي؛ وهذا ما أُشير إليه في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ**﴾[٤].

وأما إذا ما جُعلت النظريات العلمية طريقاً للكشف عن الإعجاز القرآني فذلك

---

١ ـ فكلام غير المعصوم قابل للصواب والخطأ في أصله، وأما كلام المعصوم فإنّه صحيح في أصله، ولكنه معرَّض للخطأ والتحريف في نقله، سواء بعمد من النقلة أم بغير عمد.

٢ ـ فصلت: ٥٣.

٣ ـ العنكبوت: ٢٠.

٤ ـ ق: ٦.

هو منهج الإعجاز، فتكون النظريات العلمية المُكتشفة طريقاً لديمومة الإعجاز القرآني، فالمنهج الإيقاظي يمثل حركة امتدادية من القرآن إلى النظريات العلمية، ومنهج الإعجاز يمثل حركة راجعة من النظريات العلمية إلى القرآن؛ وهذا ما يُمكن توضيحه ضمن المخطط التالي:

أسئلة الحاضرين:

١ ـ ما هو موقف الشيعة من الإعجاز العلمي؟

الجواب: الإعجاز العلمي مقبول على نحو الموجبة الجزئية، فهو موكول لضوابط لابدَّ منها، وجميع الضوابط التي تقدَّمت هي مشروطة فيه، إلا أنّهم يتوسَّعون في ذلك بقبول النتائج العلمية التي تورث الاطمئنان، فلا يُشترط فيها القطع؛ وفي حدود استقرائي لم أجد مفسراً إمامياً يمنع من التفسير العلمي والقول بالإعجاز العلمي.

٢ ـ هنالك بعض الأعلام يرى بأنَّ الإعجاز العلمي ينبغي أن يكون منطلقاً من القرآن باتجاه العلم التجريبي، أي: لابدَّ للقرآن أن يكون دافعاً لخوض التجارب لإثبات النتائج القرآنية، لا أن نأخذ النتائج العلمية الجاهزة ونطبقها على القرآن.

الجواب: إنّ هذا الكلام لا يُفهم منه المنع من الإعجاز العلمي، وإنّما فيه دعوى للمنهج الإيقاظي في قبال المنهج الإعجازي، وقد تقدَّم بيان ذلك.

الدرس الخامس والسادس:

صيانة القرآن من التحريف

المقطوع به بين المسلمين من الفريقين معاً هو القول بعدم وقوع التحريف في القرآن، وأنّ الموجود بأيدينا هو جميع القرآن المنزل على النبي الأكرمﷺ، وقد صرح بذلك أعلام الأُمة من المُتقدِّمين والمتأخِّرين.

وقال السيّد الخميني: (إنّ الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه، قراءةً وكتابةً يقف على بطلان تلك المزعمة، وأنّه لا ينبغي أن يركن إليه ذو مسكة ـ إلى أن قال ـ: إنّ الكتاب العزيز هو عين ما بين الدفّتين، لا زيادة فيه ولا نقصان، وإنّ الاختلاف في القراءات أمرٌ حادث ناشِئ عن اختلاف الاجتهادات، من غير أن يمسّ جانب الوحي الذي نزل به الروح الأمين على قلب سيّد المرسلين)[1].

نعم، ذهب جماعة من المحدثين من الشيعة، وجمع من علماء أهل السنة إلى القول بوقوع التحريف؛ وهم أُناس ممن لا صناعة لهم إلا الظن والتأويل[2]؛ أو أُناس من الحشوية الذين لا عهد لهم بالعلم والتحقيق.

وعلى أيِّة حال، فإنّ المراد من القول بالتحريف في القرآن اصطلاحاً هو القول بوجود زيادة أو نقيصة في القرآن، أما الزيادة فلا قائل بذلك البتة، وأما النقيصة فهو مُدَّعى بعض أدعياء العلم، وهذا هو محلّ النزاع.

ومثال ادعاء النقيصة في القرآن ـ والعياذ بالله ـ ما رواه البخاري ومسلم عن

---

١ ـ تهذيب الأصول، تقريرات العلاّمة الأكبر الأستاذ الأعظم آية الله العظمى روح الله الموسوي الخميني٢: ١٦٥، بقلم الشيخ جعفر السبحاني التبريزي، مطبعة مهر، قم المقدسة.

٢ ـ انظر: إعجاز القرآن، للشيخ محمد الرافعي: ٤١.

ابن عباس أنّ عمر قال فيما قال، وهو على المنبر: (إنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها، وعقلناها، ووعيناها. فلذا رجم رسول الله صلى الله عليه وآله ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال...ثم إنا كنّا نقرأ فيما نقرأ، من كتاب الله: أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنّه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو: إن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم...)[1]؛ وآية الرجم التي ادعى عمر أنها من القرآن ولم تقبل منه رويت بوجوه: منها: (إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة، نكالاً من الله، والله عزيز حكيم)، ومنها: (الشيخ والشيخة فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة).

وأيضاً: من أمثال ذلك ما يُقال في نسخ التلاوة المنسوب للكثير من علماء أهل السنة؛ وهو: أن بعض القرآن قد نسخت تلاوته، أي ألفاظه.

أدلة عدم وقوع التحريف

الحقّ أن التحريف بالمعنى الذي وقع النزاع فيه غير واقع في القرآن أصلاً؛ وأما الأدلة على ذلك فهي[2]:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[3]، فإن في هذه الآية دلالة على حفظ القرآن من التحريف، فلا تتمكن الأيدي الجائرة من التلاعب فيه.

وقد توهّم البعض من كون المراد من الذكر هو الرسول الأكرم، ولكنَّه واضح الفساد؛ لأنَّ التعبير بالتنزيل والإنزال يدل على كون المراد هو القرآن؛ ولو كان

---

١ ـ صحيح البخاري، مصدر سابق ٨: ٢٦. وأيضاً: صحيح مسلم ٥: ١١٦. مع وجود فارق يسير عند مسلم.

٢ ـ استفدنا ذلك من كتاب: البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ٢٠٩ ـ ٢٢١.

٣ ـ الحجر: ٩.

المراد هو الرسول لكان المناسب أن يأتي بلفظ الإرسال، أو بما يقاربه في المعنى، علماً بأنَّ هذه الآية مسبوقة بقوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾[1]، وفي ذلك دلالة واضحة على كون المراد من الذكر هو القرآن.

وقيل بأنَّ المراد من حفظ القرآن صيانته عن القدح فيه، وهو قول أشدّ فساداً من السابق، فالمناوئون ما انفكّوا عن القدح بالقرآن، من المتقدِّمين والمتأخِّرين.

وقيل بأنَّ المراد من حفظه هو حفظه في الجملة لا بالجملة، أو أنه محفوظ عند الإمام الغائب عليه السلام، وهذا هو أوهن الاحتمالات؛ لأن حفظ القرآن يجب أن يكون عند من أُنزل إليهم وهم عامة البشر، أما حفظه عند الإمام عليه السلام فهو نظير حفظه في اللوح المحفوظ، أو عند ملك من الملائكة.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[2]؛ حيث يدل على نفي الباطل بجميع أقسامه عن الكتاب، فإن النفي إذا ورد على الطبيعة أفاد العموم، ولا شبهة في أن التحريف من أفراد الباطل، فيجب أن لا يتطرق إلى الكتاب العزيز.

الدليل الثالث: أخبار الثقلين اللذين خلفهما النبي صلى الله عليه وآله في أمته وأخبر أنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض، وأمر الأمة بالتمسك بهما، وهما الكتاب والعترة.

فإن القول بالتحريف يستلزم عدم وجوب التمسك بالكتاب المنزل لضياعه على الأمة بسبب وقوع التحريف، ولكن وجوب التمسك بالكتاب باق إلى يوم القيامة لصريح أخبار الثقلين، فيكون القول بالتحريف باطلاً جزماً.

الدليل الرابع: الأخبار الكثيرة المرويّة عن النبيّ صلى الله عليه وآله من طرق الفريقين الآمرة بالرجوع إلى القرآن عند الفتن وفي حلّ عُقد المشكلات، فكيف نُؤمر بالرجوع

---

١ ـ الحجر: ٦.

٢ ـ فصلت: ٤١ ـ ٤٢.

للقرآن عند الفتن مع وجود احتمال التحريف فيه؟!

وكذا الروايات المستفيضة بل المتواترة الواردة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام الدالّة على عَرْض الروايات والأخبار المرويّة عنهم على الكتاب، والأخذ بما وافقه منها، وأنّ ما خالفه مجرد زخرف.

الدليل الخامس: أنه قد أمر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بقراءة سورة تامة بعد الفاتحة في الركعتين الأوليين من الفريضة، وحكموا بجواز تقسيم سورة تامة أو أكثر في صلاة الآيات؛ ومن البيّن أن هذه الأحكام إنما ثبتت في أصل الشريعة بتشريع الصلاة وليس للتقية فيها أثر؛ فأصل الوجوب بقراءة سورة تامة، والترخيص باختيار أيِّ سورة دليل على كون القرآن غير محرَّف، وإلا لا معنى للترخيص، وغير ممكن الإتيان بسورة كاملة.

الدليل السادس: إنّ القرآن أنزله الله على نبيّه ووصفه في آيات كثيرة بأوصاف خاصّة، من قبيل: (الإعجاز وارتفاع الاختلاف والهداية والنورية والذكرية والهيمنة على سائر الكتب السماوية)، فلو كان قد تغيّر في شيء من هذه الأوصاف بزيادة أو نقيصة أو تغيير في لفظ أو ترتيب مؤثّر فقَدَ آثار تلك الصفة قطعاً، لكنّا نجد القرآن الذي بأيدينا واجداً لآثار تلك الصفات المعدودة على أتمّ ما يمكن وأحسن ما يكون، فلم يقع فيه تحريف يسلبه شيئاً من صفاته، فالذي بأيدينا منه هو القرآن المنزّل على النبيّ صلى الله عليه وآله بعينه، فلو فرض سقوط شيء منه أو تغيّر في إعراب أو حرف أو ترتيب، وجب أن يكون في أمر لا يؤثّر في شيء من أوصافه (كالإعجاز وارتفاع الاختلاف والهداية والنورية والذكرية والهيمنة على سائر الكتب السماوية إلى غير ذلك) وذلك كاختلاف في نقطة أو إعراب ونحوها[1].

الدليل السابع: على أنّ نظم القرآن ودقّة سبكه وقوة ارتباط بعضه ببعض كافٍ

---

١ ـ انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق ١٢: ١٠٤ـ ١٠٧.

في رفع أيٍّ التباس يرد في ذلك، قال الطباطبائي:(كيف لا، والقرآن الذي بأيدينا متشابه الأجزاء في نظمه البديع المعجز، كاف في رفع الاختلافات المتراءاة بين آياته وأبعاضه، غير ناقص ولا قاصر في إعطاء معارفه الحقيقيّة وعلومه الإلهية الكلّية والجزئية المرتبطة بعضها ببعض، المترتّبة فروعها على أُصولها، المنعطفة أطرافها على أوساطها، إلى غير ذلك من خواصّ النظم القرآني الذي وصفه الله بها)[١].

شبهات القائلين بالتحريف

الشبهة الأُولى: أن التحريف قد وقع في التوراة والإنجيل، وقد ورد في الروايات المتواترة من طريقي الشيعة والسنة: أن كل ما وقع في الأمم السابقة لابد وأن يقع مثله في هذه الأمة، فمنها قول رسول الله صلى الله عليه وآله: (كل ما كان في الأمم السالفة، فإنه يكون في هذه الأمة مثله حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة)[٢].

وفي رواية البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال:(**لتتبعُنّ سنن من كان قبلكم شبراً شبراً، وذراعاً بذراع، حتّى لو دخلوا جُحر ضبٍّ تبعتموهم**)، قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: (فَمَن؟)[٣].

ونتيجة ذلك: أن التحريف لا بد من وقوعه في القرآن، وإلا لم يصح معنى هذه الأحاديث.

والجواب عن ذلك:

أولاً: أنّ الروايات المشار إليها أخبار آحاد لا تفيد علماً ولا عملاً.

ثانياً: إن هذا الدليل لو تم لكان دالاً على وقوع الزيادة في القرآن أيضاً، كما وقعت في التوراة والإنجيل، ومن الواضح بطلان ذلك.

---

١ ـ الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق ١٢: ١١٥.

٢ ـ كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق: ٥٧٦.

٣ ـ صحيح البخاري، مصدر سابق: ح ٧٣٢٠، وأخرجه مسلم في صحيحه: مصدر سابق، ح ٢٦٦٩.

ثالثاً: أن كثيراً من الوقائع التي حدثت في الأمم السابقة لم يصدر مثلها في هذه الأمة، كعبادة العجل، وتيه بني إسرائيل أربعين سنة، وغرق فرعون وأصحابه... وغير ذلك مما لا يسعنا إحصاؤه، وهذا أدل دليل على عدم إرادة الظاهر من تلك الروايات، فلابد من إرادة المشابهة في بعض الوجوه؛ وعلى ذلك فيكفي في وقوع التحريف في هذه الأمة عدم إتباعهم لحدود القرآن، وإن أقاموا حروفه كما في الرواية التي تقدمت في صدر البحث.

الشبهة الثانية: أن علياًعليه السلام كان له مصحف غير المصحف الموجود، وقد أتى به إلى القوم فلم يقبلوا منه، وأن مصحفهعليه السلام كان مشتملاً على أبعاض ليست موجودة في القرآن الذي بأيدينا، ويترتب على ذلك نقص القرآن الموجود عن مصحف أمير المؤمنين عليعليه السلام وهذا هو التحريف الذي وقع الكلام فيه.

والجواب عن ذلك: إن تلك الزيادات كانت تفسيراً بعنوان التأويل، وما يؤول إليه الكلام، ثم: (إنّ جمعهعليه السلام القرآن وحمْله إليهم وعَرْضه عليهم لا يدلّ على مخالفة ما جمعه لما جمعوه في شيء من الحقائق الدينية الأصلية أو الفرعية إلاّ أن يكون في شيء من ترتيب السور أو الآيات من السور التي نزلت نجوماً بحيث لا يرجع إلى مخالفة في بعض الحقائق الدينيّة. ولو كان كذلك لعارضهم بالاحتجاج ودافع فيه ولم يقنع بمجرّد إعراضهم عمّا جمعه واستغنائهم عنه كما روي عنهعليه السلام في موارد شتّى، ولم ينقل عنهعليه السلام فيما روي من احتجاجاته أنّه قرأ في أمر ولايته ولا غيرها آية أو سورة تدلّ على ذلك، وجبههم على إسقاطها أو تحريفها)[1].

قال الشيخ اللنكراني: (الظاهر أنّ تلك الإضافات والزوائد لا تكون جزءاً للقرآن، وإطلاق (التنزيل) عليها لا يدلّ على كونها من القرآن؛ لعدم اختصاص هذا الوصف بالقرآن، وكان المتعارف نزول بعض الأمور بعنوان التوضيح والتفسير

---

١ ـ الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق ١٢: ١١٦.

للقرآن، وكان بعض الكتّاب يكتبه مع القرآن من دون علامة، لكونهم آمنين من الالتباس، ولأجله حكي أنّ ابن مسعود قرأ وأثبت في مصحفه: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم في موسم الحجّ)[1].

الشبهة الثالثة: هنالك روايات قد دلت على تحريف القرآن الكريم فلابدّ من القول به.

والجواب: إنّ كثيراً من هذه الروايات ضعيفة السند، فإنّ جملة منها نقلت من كتاب أحمد بن محمد السياري الذي اتّفق علماء الرجال على فساد مذهبه وأنّه يقول بالتناسخ، ومن عليّ بن أحمد الكوفي الذي ذكر علماء الرجال أنّه كذّاب، وأنّه فاسد المذهب[2]، ولمراجعة تفصيل المسألة يُراجع كتاب:(القرآن الكريم وروايات المدرستين) للسيد مرتضى العسكري؛ هذا أوّلاً.

وأما ثانياً، فإنّ السواد الأعظم من هذه الروايات لا دلالة فيها على وقوع التحريف في القرآن بالمعنى المتنازع فيه، من قبيل الروايات التي دلت على أن بعض الآيات المنزلة من القرآن قد ذكرت فيها أسماء الأئمةعليهم السلام، وهي كثيرة: منها ما ورد من ذكر أسماء الأئمةعليهم السلام في القرآن، كرواية (الكافي) بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسنعليه السلام قال: (**ولاية علي بن أبي طالب مكتوبة في جميع صحف الأنبياء، ولن يبعث الله رسولاً إلا بنبوة محمد وولاية وصيه صلى الله عليهما وآلهما**)؛ ورواية العياشي بإسناده عن الصادقعليه السلام: (**لو قرئ القرآن كما أُنزل لألفينا مُسمَّين**)، حيث تدل على تعرّض القرآن لذكر ولاية عليعليه السلام، كما في آية الولاية، وهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ**

---

١ ـ مدخل التفسير (أبحاث حول إعجاز القرآن والدفاع عن صيانته من التحريف)، آية الله العظمى الشيخ محمّد الفاضل اللنكراني: ٢٧٣، تحقيق و نشر مركز فقه الأئمّة الأطهارعليهم السلام.

٢ ـ البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ٢٢٦.

الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1]، وأيضاً ما ذكره القرآن من أوصاف خاصة بأهل البيت، من قبيل: (الراسخون في العلم، الصادقون، أُولو العلم، أُولو الأمر، العلماء)، وغير ذلك من الأوصاف التي تحكيهم وكأنها بمقام تسميتهم.

أسئلة الحاضرين حول موضوع صيانة القرآن من التحريف:

١ ـ هل التنقيط الحاصل في القرآن زائد على أصل القرآن، وهل تتعلَّق هذه الزيادة بالتحريف؟

الجواب: التنقيط أمر زائد على القرآن، حيث كان القرآن غير منقط، ولكن لذلك لا يُعد تحريفاً؛ لأنَّ التحريف يعني إضافة ألفاظ ومعاني جديدة على الأصل، أو ادعاء وجود نقص في الألفاظ أو المعاني، والتنقيط ليس ألفاظاً ولم تُضَف معاني جديدة، بل هو وسيلة نافعة لحفظ القرآن من التحريف.

٢ ـ هل الرموز الموجودة في القرآن من قبيل رموز آية السجدة وما شابه ذلك، كانت موجودة في النص القرآني؟

الجواب: كلا لم تكن موجودة، وإنما استُحدثت فيما بعد، وجزء منها له منشأ روائي، والجزء الأعظم منها يعود إلى الضبط اللغوي والقراءة الصحيحة، فهي أشبه ما تكون بالتنقيط .

٣ ـ هل يُوجد احتمال في تغيّر مواقع الآيات، حيث توجد آيات في مواقع نزولها؟

الجواب: ربما يُقال ذلك، ولكنه ليس من التحريف بشيء، كما أنَّه انتقال وقع لمصلحة إلهية كبرى، منها ما يتعلَّق بصيانة القرآن من التحريف، فلعل وجودها في مواقعها الأصلية سيكون مدعاة لتحريفها نظراً لاختصاصها أو ورودها في مسألة

---

١ ـ المائدة: ٥٥.

الإمامة، وفي صورة وقوعها فإنَّ ذلك الأمر قد أُجري الانتقال على يد الرسول صلى الله عليه وآله، من قبيل قوله تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[1]، حيث نلاحظ أن قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾، قد وقع بين مقطعين يشتركان بموضوع واحد ولا علاقة له به.

٤ ـ هل كان الإنجيل موجوداً في زمن عيسى عليه السلام؟

الجواب: كانت هنالك تعاليم إلهية، منزلة من قبل الله تعالى على نبيه عيسى عليه السلام، وقال تعالى: ﴿**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ**﴾[2]، ولم يكن هنالك كتاب بعينه، والإنجيل الموجود حالياً جمعه ثلة من أتباع عيسى بعد أكثر من مائة عام، وقد سُمِّي بذلك لأنهم كانوا يحفظونه ويقرأونه على ظهر قلوبهم.

٥ ـ هل النسخة التي كتبها الإمام علي عليه السلام موجودة عند الإمام المهدي المنتظر عليه السلام؟

الجواب: هنالك بعض الأخبار تُشير إلى ذلك.

٦ ـ ما المراد من قوله تعالى: ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾؟

الجواب: في قوله: ﴿**مِن بَيْنِ يَدَيْهِ**﴾ إشارة إلى الظاهر، وفي قوله: ﴿**وَلا مِنْ**

---

١ ـ المائدة: ٣.

٢ ـ آل عمران: ٣.

خَلْفِهِ﴾ إشارة إلى الباطن، فيكون المراد هو أنه لا يأتيه الباطل لا في ظاهره ولا في باطنه.

٧ ـ هل قوله تعالى: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ نفي للتحريف فحسب؟

الجواب: كلا، فهي نفي لمطلق الباطل، وواحد من مصاديقه نفي التحريف عنه، كما أن من المصاديق الأُخرى نفي الضلال عنه، وهكذا.

الدرس السابع: الناسخ والمنسوخ

أولاً: الناسخ والمنسوخ[1].

النسخ معنى انتزاعي مأخوذ من طرفي الناسخ والمنسوخ، وهو في اللغة يأتي بمعانٍ ثلاثة، وهي:

الأول: بمعنى الاستكتاب[2]، وهو معنى قريب من الاستنساخ[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿**هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[4].

الثاني: بمعنى النقل والتحويل، ومنه ما يلتزم به القائلون بالتناسخ والحلول، أي: حلول روح إنسان في جسدٍ آخر[5].

الثالث: بمعنى إزالة شيء بشيء يتعقبه، كنسخ الشمس الظلَّ، والظلِّ الشمسَ، والشيب الشباب[6]، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[8].

---

١ ـ استفدنا هذا البحث من كتاب:(منطق فهم القرآن)، للسيد المحقّق آية الله كمال الحيدري، بقلم الدكتور طلال الحسن.

٢ ـ انظر: البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ٢٧٧.

٣ ـ انظر: مفردات ألفاظ القرآن، مصدر سابق: ٤٩٠. وأيضاً: الفروق اللغويةلأبي هلال العسكري: رقم: (٢١٦٧)، تحقيق ونشر مؤسسّة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، قم المقدسة.

٤ ـ الجاثية: ٢٩ .

٥ ـ إلى هذا ذهب شرذمة من المتكلمين المتقدمين.

٦ ـ انظر: مفردات ألفاظ القرآن، مصدر سابق: ٤٩٠. وأيضاً: الفروق اللغوية، مصدر سابق: رقم: (٢١٦٧).

٧ ـ الحج: ٥٢ .

٨ ـ البقرة: ١٠٦ .

وهذا المعنى اللغوي الأخير هو الأقرب للمعنى الاصطلاحي، كما أنّ الآية الأخيرة هي الدليل القرآني على وقوع النسخ الاصطلاحي في الأحكام كما هو ثابت في محلِّه.

وأما النسخ في الاصطلاح فهو رفعُ أمر ثابت في الشريعة المقدسة بارتفاعِ أمده وزمانه، سواء أكان ذلك الأمر المرتفع من الأحكام التكليفية أم الوضعية[١].

وقيد (أمر ثابت في الشريعة) ليخرج به ارتفاع الحكم بسبب ارتفاع موضوعه خارجاً، كارتفاع وجوب الصوم بانتهاء شهر رمضان، وارتفاع وجوب الصلاة بخروج وقتها، فإنَّ هذا النوع من ارتفاع الأحكام لا يسمى نسخاً، ولا إشكال في إمكانه ووقوعه[٢]؛ كما أنَّ قيد (بارتفاعِ أمده وزمانه) يعني: انتفاء مصلحته أو مفسدته، أو حلول مصلحة أو مفسدة أكبر دعت لنسخه؛ وأما قيد (الوضعية) فلعله للإشارة إلى أن الشارع المقدس له دور تأسيسي في مجال المعاملات وإن كان الأصل فيه إمضائياً، بخلاف العبادات فدوره تأسيسي خالص وليس لغيره دور مطلقاً، وهذا واضح.

نكات لابدّ منها

١ ـ إنّ النسخ مجاله عالم التشريع، بخلاف البَداء فإنّ مجاله عالم التكوين.

٢ ـ إنّ المراد من عالم التشريع في المقام هو عالم الثبوت لا الإثبات[٣].

---

١ ـ انظر: البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ٢٧٧ .

٢ ـ المصدر السابق: ٢٧٧ .

٣ ـ الفرق الأساسي بينهما هو أن الأول يكون مجعولاً على نحو القضية الحقيقية، بمعنى انصباب الحكم على الموضوع المُفترض الوجود ولا يُشترط فيه التحقق خارجاً، بخلاف الحكم في عالم الإثبات فإنه منصبٌّ على الموضوع المتحقق خارجاً. ولذلك فإنّ ارتفاع الحكم الشرعي في مرحلة الإثبات لا يكون من باب النسخ، وإنما من باب ارتفاع الحكم بارتفاع موضوعه، أي: يكون من باب السالبة بانتفاء الموضوع، كارتفاع حرمة الخمر المُنقلب خلاً.

٣ ـ إنّ النسخ معنىً انتزاعي من طرفين، هما الناسخ والمنسوخ، والأول هو الحكم اللاحق، والتالي هو الحكم السابق.

٤ ـ إنّ الحكم الناسخ مُعيَّن في علم الله تعالى في الآنِ الذي عُيَّن في الحكم المنسوخ.

٥ ـ إنّ النسخ الاصطلاحي في عالم التشريع مجاله القرآن لا غير، بمعنى أنّ المنسوخ هو حكم قرآني قطعاً، وأما الناسخ فلا يُشترط فيه ذلك، فقد يكون قرآناً، كما هو الحال في آية النجوى، وقد يكون سُنةً قطعيةً أو إجماعاً قطعياً، وأما كونه خبراً واحداً فهو ممنوع لقيام الإجماع على ذلك، لا لمقتضى القاعدة.

٦ ـ أن يكون موضوع الناسخ والمنسوخ واحداً، وإلا لكان الحكم المرتفع من باب انتفاء موضوعه، فيخرج عن موضوعه النسخ من رأس.

٧ ـ إنّ النسخ الواقع والمُختلف في مقداره هو نسخ الحكم دون التلاوة، فيخرج نسخ التلاوة، ونسخ الحكم والتلاوة، وبذلك تلتزم مدرسة أهل البيت عليهم السلام، بخلاف مدرسة الخلفاء القائلين بإمكان بل وقوع النسخ في الموارد الثلاثة معاً؛ مع أنّ نسخ التلاوة يُفضي إلى القول بتحريف القرآن.

٨ ـ إنّ المراد من النسخ في المقام هو المعني المجازي لا الحقيقي، وسيأتي توضيح ذلك.

٩ ـ ليست هنالك فسحة زمنية بين ارتفاع الحكم المنسوخ وحال انصباب الحكم الناسخ، وفقاً لقاعدة عدم خلو كل واقعة من حكم خاص بها، ووفقاً لما تقدم منّا في النقطة الرابعة.

١٠ ـ إنّ الحكم الناسخ في صورة العلم به قبل انتهاء أمد الحكم المنسوخ لا أثر له في البين.

١١ ـ أن لا يكون الحكم المنسوخ قد حُدِّد أمده بزمن مُعيّن، فذلك التحديد المُسبق والمُعلن كافٍ في ارتفاعه حتى مع عدم وجود الناسخ.

١٢ ـ انحصار النسخ في دائرة الأحكام الشرعية، فلا يشمل القضايا الخبرية التي تحكي أحداثاً سالفة الوقوع، أو أُريد لها أن تقع، من قبيل ما جرى في القصص القرآني، وإلا لزم الكذب، وهو ممنوع عقلاً ونقلاً، ومن قبيل الوعد بالجنة، وإلا للزم خُلف الوعد، وهو ممنوع ـ أيضاً ـ عقلاً ونقلاً.

مجازية النسخ

نُريد من المجازية في المقام هو عدم وجود حكم حقيقي تمَّت إزالته، فالحكم المُزال إنما أُزيل من تلقاء نفسه، بمعنى أنه كان له أمد معيّن، وقد زال أو انتهى بزوال أمده، فالحكم الرافع أو الناسخ لم يجد أمامه حكماً ثابتاً لِيُزيله وإنما وجد أمامه موضوعاً بلا حكم فانصبَّ عليه، ولكنّ هذا لا يعني خلو الموضوع في آنٍ ما من حكم البتة، وقد أشرنا لذلك في النقطتين الرابعة والتاسعة.

وهذا الانصباب على الموضوع الذي انتهي أمد حكمه وأصبح خلواً ومسرحاً لتقبّل حكم جديد يُقرِّبنا من فكرة مجازية النسخ، بمعنى أنَّ إطلاق النسخ الاصطلاحي وتسمية بعض النصوص بالناسخة وأُخرى بالمنسوخة إنما هو ضرب من المجاز، فالنسخ اللغوي ـ كما تقدّم ـ من معانيه إزالة شيء بشيء يتعقبه، وهذا غير متحقق على نحو الحقيقة والواقع، فالمتحقق صورة إزالة، لا الإزالة الحقيقية؛ إذ لا شيء باقٍ ليُزال من موضعه، وهذا هو معنى المجازية في المقام، والغريب أنَّ مجازية النسخ قد غفل عنها الكثير من المُحققين.

إذا اتضح ذلك نكون قد اقتربنا كثيراً من معنى الناسخ ومعنى المنسوخ، فالناسخ هو الحكم الذي حلَّ محل الحكم الذي انتهى أمده، والمنسوخ هو الحكم الذي انتهى أمده فصار موضوعه مورداً لحكم آخر أُطلق عليه بالناسخ.

والآن نحتاج أن نُمثل بمورد هو محل اتفاق بين الأعلام في حصول النسخ فيه، وهو آية النجوى، حيث فرض الله تعالى على المؤمنين أن يتصدَّقوا على

الفقراء قبل أن يأتوا رسول اللهﷺ لمناجاته، وهو قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[1]، فعزف القوم عن ملاقاة رسول الله ومُناجاته، إما هرباً من التصدّق كما هو حال الأغنياء[2]، أو لأنهم لم يجدوا ما يتصدّقوا به، فلم يبق أحد في المدينة إلا وقد غيَّب وجهه عن رسول اللهﷺ إلا أمير المؤمنين عليعليه السلام، فقد عمل بالآية الكريمة أياماً، ولما صعب على الأُمة الموقف نزلت بهم رحمة ربِّهم فأعفاهم من ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿**أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[3].

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليعليه السلام كما جاء في رواية عن مكحول:(**لقد علم المستحفظون من أصحاب النبي محمدﷺ أنه ليس فيهم رجل له منقبة إلا قد شركته فيها وفضلته، ولي سبعون منقبة لم يشركني أحد منهم**)، قلت ـ أي مكحول ـ: يا أمير المؤمنين فأخبرني بهن، فقالعليه السلام: (**وإنَّ أول منقبة...، وأما الرابعة والعشرين فإنَّ الله عزَّ وجل أنزل على رسوله: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ﴾ فكان لي دينار فبعته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله أتصدَّق قبل ذلك بدرهم، والله ما فعل هذا أحد غيري من أصحابه قبلي ولا بعدي فأنزل الله عزوجل: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ﴾**).

---

١ ـ المجادلة: ١٢ .

٢ ـ أقول: لقد عُرِف عن البعض من عِلْيَة القوم كثرة التصدّق في سبيل الله تعالى، وأنَّهم تصدّقوا بأموالهم في حياة رسول اللهﷺ مرتين، والبعض تصدّق بنصف ماله، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: أَوَ لم يبقَ من أموالهم الكثيرة درهم واحد ليتصدّقوا به؟!، أو لم يكن لقاء رسول اللهﷺ أولى من حفظ الدينار والدرهم؟!، فلم يكن للتصدّق سوى الأُخيشن في ذات الله، وربيب رسولهﷺ، فأفرغ ما في جيبه الذي ما عرف الجمع أبداً، وتقدَّم ليلقى أخاه وصهره وابن عمه والمُوصِي به.

٣ ـ المجادلة: ١٣.

وفي رواية أُخرى: **(إنَّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها بعدي، آية النجوى)**[1].

ثمرة معرفة الناسخ والمنسوخ

وأما ثمرة معرفة النسخ والناسخ والمنسوخ فقد اتضحت جملة من معالمها ممَّا تقدَّم، ولكننا حيث إننا نهتم بثمرتها التفسيرية، فسوف نُثير نكات في غاية الأهمية تتعلَّق بهذا الأمر، فكثير ممَّن قلَّ باعه يظن بأنَّ الآية المنسوخة قد تعطلت تماماً، ولم يبق منها سوى تلاوتها، والأجر على قراءتها، وهذا خطأ كبير، كما سيتضح.

إنَّ النصّ القرآني لا ينحصر دوره في الكشف عن الأحكام الشرعية، وإنما ذلك دور أساسي يقع في عرضه أدوار أُخرى، منها معلومة لدينا، ومنها غير معلومة، أما المعلومة فمن قبيل:

الأول: الدور التفسيري المباشر، وعلى جميع مستوياته، المفرداتي والتجزيئي والموضوعي، ويتأكَّد هذا الدور في طريقية تفسير القرآن بالقرآن.

الثاني: الدور الصياغي في حفظ النكات البلاغية الداخلة في مسألة الإعجاز، ولا ريب بأنَّ لهذا الدور صلة وثيقة بمجريات التفسير، فالتفسير يهدف إلى بيان مراد الله تعالى في حدود كتابه وبحدود المكنة البشرية، ومن جملة مُراداته الضرورية التبيين هو الجانب الإعجازي.

الثالث: دور الهداية، وهو من أعظم الأدوار التي ينهض بها القرآن الكريم، وهذا الدور لا يستثني النصوص المنسوخة، فإنَّ القرآن بما هو هو، بأجوائه ومناخاته الخاصة، بصياغاته وإيقاعاته الداخلية التي تتلاءم مع الوجدان، فإنَّ صوتيات القرآن تمتدّ إلى أعمق مراتب النفس، ولعلّ لأجل هذه النكتة يُحاول

---

١ ـ تفسير نور الثقلين، للشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي ٥: ٢٦٥، ح ٤٨، تحقيق السيد هاشم المحلاتي، نشر مؤسسة إسماعيليان، الطبعة الرابعة، ١٤١٢ هـ، قم.

بعض علماء النفس المعاصرين الاستفادة من هذه الصوتيات في العلاج النفسي، وهذه المحاولات بقطع النظر عن نتائجها فإنّ الثابت عندهم هو التأثير الإيجابي والسلبي للصوتيات، وهذا كافٍ بالنسبة إلينا لترجيح صوتيات النصوص القرآنية على غيرها، وهذا أمر ثابت للمؤمنين وجداناً، ولغيرهم برهاناً، ويكفينا في ذلك ما نُطالعه من الأثر الإيجابي الذي تركه القرآن الكريم لمجرد سماعه حتى لغير الناطقين بالعربية.

إنّ احتمالية وقوع النصّ المنسوخ في طريق الهداية، إما لأثره الصوتي أو لأثره المعنوي، يكفينا في تقبل فكرة هدفية النصّ المنسوخ بعد فقده للدور الأولي المتمثل بالحكم.

وفي ضوء ما تقدَّم يكون قد اتضح لنا أهمية مصدرية موضوع النسخ في فهم النصّ القرآني، وأنه لابدَّ من الوقوف على ضوابطه وشروطه.

أسئلة الحاضرين الخاصة بالناسخ والمنسوخ

١ ـ هل يوجد وجه شبه بين النظريات العلمية وبين الناسخ والمنسوخ؟

الجواب: نعم يوجد وجه شبه، ولكنه شبه صوري، ففي النظريات العلمية عندما يصلون إلى حقيقة علمية فإنهم يجهلون ما سيطرأ عليها، وفيما إذا جاءت حقيقة أُخرى تلغي الأُولى فإنهم لم يكونوا عارفين بها عند وصولهم للحقيقة الأولى، بخلاف الحال في النسخ الاصطلاحي، فإنّ الله تعالى عالم بالناسخ في الآن الذي أوجد فيه المنسوخ، هذا أولاً.

وثانياً فإنه تعالى إنما يجعل الناسخ والمنسوخ في ضوء المصالح والمفاسد، وأما أصحاب التجارب العلمية فإنهم ينسخون السابق باللاحق في ضوء ما يصلون إليه من نتائج.

٢ ـ كيف ينسجم القول بالناسخ والمنسوخ مع القول بأن حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة؟

الجواب: لا تنافي في المقام، فالمراد من الحديث الشريف هو خصوص الأحكام الدائمية، فلا يشمل المنسوخة.

٣ ـ هل إن النسخ يُشكِّل نقطة ضعف في الإعجاز القرآني؟

الجواب: كلا، فإنَّ الآية المنسوخة إنما نُسخ حكمها ولم تسقط ألفاظها وما تحمله من ميزة لغوية وتفسيرية.

٤ ـ هل يوجد ناسخ ومنسوخ في الروايات؟

الجواب: نعم يوجد ناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه أيضاً، ولكن الاصطلاح صادق على النسخ في القرآن، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ما يُؤكِّد وجود الناسخ والمنسوخ في أقوالهم، وذلك في وصفه لنقلة الحديث، حيث يقول:(**إنَّ في أيدي الناس حقاً وباطلاً وصدقاً وكذباً وناسخاً ومنسوخاً وعاماً وخاصاً ومحكماً ومتشابهاً وحفظاً ووهماً وقد كُذِب على رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته كَذِباً كثيراً حتى قام خطيباً فقال: "أيها الناس قد كَثُر عليَّ الكذّابة، فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"، وكذلك كُذِب عليه بعده؛ إنما أتاك بالحديث أربعة ليس لهم خامس ... فإنَّ أمْرَ الرسول صلى الله عليه وآله مثلُ القرآن ناسخٌ ومنسوخٌ ومحكمٌ ومتشابهٌ، يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الأمر له وجهان: كلامٌ عامٌّ وكلامٌ خاصٌّ مثلُ القرآن... وليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كان يسأله عن الشيء ويستفهمه، كان منهم من يسأل ولا يستفهم حتى لقد كانوا يحبُّون أن يجيء الأعرابي أو الطارئ أو الذمِّي فيسأل حتى يسمعوا ويفهموا**)[1].

---

١ ـ تحف العقول، ابن شعبة الحراني: ١٩٣ ـ ١٩٥.

الدرس الثامن: المحكم والمتشابه

قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾[1].

فما هو المراد من المُحكم والمُتشابه؟

وقع خلاف في تصوير ذلك، سنذكر أهمَّ ما ورد في ذلك[2]:

التصوير الأول: إنَّ الفاصلة بين المُحكم والمُتشابه تكمن في تحقق الفهم وعدمه، فما فُهِم مرادُه فهو مُحكم، وما لم يُفهم مرادُه فهو مُتشابه، مما يعني أنَّ المُحكم والمُتشابه سيكونان كذلك بلحاظ القارئ لا بلحاظ أنفسهما.

التصوير الثاني: إنَّ الفهم حاصل في كلا الأمرين، ولكن هنالك فهم مُحكم غير حمَّال وجوه، وهناك فهم مُتشابه حمَّال وجوه.

التصوير الثالث: إنَّ المُحكم هو ما كان مُختصّاً بآيات الأحكام بشكل مُطلق، وبالفرائض بصورة خاصّة، وأما المُتشابه فهو ما تعلَّق بغير ذلك من قبيل القصص القرآني.

التصوير الرابع: إنَّ المُحكم هو تعبير آخر عن الآيات الناسخة، والمُتشابه هو تعبير آخر عن المنسوخ، وعليه فالمُتشابه لا يُوجِد مُشكلةً حقيقية، لأنَّ آياته مُعطلة الأحكام بسبب نسخها.

التصوير الخامس: إنَّ المُحكم ما كان نصّاً في معناه أو ظاهراً فيه بلا حاجة

---

١ ـ آل عمران: ٧.

٢ ـ انظر: منطق فهم القرآن، مصدر سابق.

إلى قرينة، والمُتشابه ما لم يكن نصّاً في معناه أو ظاهراً فيه، أي: كان مُشتركاً أو مُجملاً أو مؤوّلاً.

التصوير السادس: المُحكم هو البيِّن الذي اكتفى قارئه به عن الحاجة لتفسيره أو تأويله، والمُتشابه ما لم يُكتفَ به، فاحتاج فهمُه إلى تفسير أو تأويل، وقد نُسب ذلك للإمام أحمد بن حنبل[١].

وهو قول مردود، فإنّ آيات الأحكام محكمات قطعاً، وهي مع ذلك محتاجة إلى بيان النبيﷺ، كما أنّ الآيات المنسوخة متشابهات، وهي لا تحتاج إلى بيان، فوقع النقض من الجهتين.

التصوير السابع: المُحكم ما اكتفى قارئه بتفسيره، والمُتشابه ما احتاج قارئه إلى تأويله، وهو وجه وجيه يُمكن القبول به ابتداءً.

التصوير الثامن: المُحكم هو ما نتج تأويله وجهاً واحداً لا غير، ولا يحتمل غيره، والمُتشابه ما احتمل تأويلُه وجوهاً عدّة[٢]؛ وهو قول يُفسر التأويل بمعنى التفسير، وهو قول باطل، فلو كان التأويل تفسيراً لم يكن لاختصاص علمه بالله أو بالله والراسخين في العلم وجه.

التصوير التاسع: المُحكم ما انحصر مصداقه بعينة بيِّنة واحدة، والمُتشابه ما تكثَّرت مصاديقه، فالتقسيم بلحاظ المصداق الخارجي وليس بلحاظ الألفاظ نفسها.

التصوير العاشر: إنّ كُلاً من المُحكم والمُتشابه له مصداق خارجي واحد، ولكن ما وقع الترديد في تحديده فهو مُتشابه، وما لم يقع الترديد في تحديده خارجاً فهو المُحكم.

---

١ ـ انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق ٣: ٤١.

٢ ـ انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٣: ٢٣٦، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، نشر دار الفكر، ١٤١٥ هـ، بيروت.

التصوير الحادي عشر: إنَّ المُحكم هو ما يُمثل جهة الثابت في الشريعة، والمُتشابه ما يُمثل جهة المتغير، فقول المُعاصرين بوجود ثابت ومُتغيَّر في الشريعة يعنون به وجود المُحكم والمُتشابه.

التصوير الثاني عشر: إنَّ المُحكم هو ما يُؤمن به ويُعمل به أيضاً، والمُتشابه ما يُؤمن به ولكن لا يُعمل به، كما يُفهم ذلك من بعض الراويات، من قبيل ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: (**فأما المحكم فتؤمن به وتعمل به وتدين به، وأما المتشابه فتؤمن به ولا تعمل به**)[١]، والظاهر بأنَّ المراد هو عدم صحّة العمل بالمُتشابه قبل مُراجعة المُحكم.

التصوير الثالث عشر: إنَّ المُحكم هو خصوص الحروف المُقطّعة، أو فواتح الكتاب، وما عدا ذلك فهو من المُتشابه[٢]، فالإحكام هنا يعني أنَّه من الخفاء والأسرار التي تنضوي تحت الفواتح، وهو وجه غريب جداً، لأنَّ مفاده أنَّ العامل بتلك التفاصيل يكون في قلبه زيغ، وأنَّ مردّ المُتشابه للمحكم لا جدوى منه !!

التصوير الرابع عشر: إنَّ الجُمل القرآنية ـ تبعاً للجُمل العربية التامة ـ تنقسم إلى جُمل إنشائية يُراد منها إيقاع النسبة في الخارج، وأُخرى خبرية، يُراد منها حكاية الواقع؛ فما كان إنشاءً فهو المُحكم، وما كان إخباراً فهو المُتشابه، وهو ما استظهره صاحب (المنار) من كلمات ابن تيمية[٣].

التصوير الخامس عشر: إنّ المحكم ما للعقل إليه سبيل، والمتشابه بخلافه،

---

١ ـ بحار الأنوار، مصدر سابق ٦٦: ٩٣.

٢ ـ تفسير القرآن العظيم، للحافظ أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي الرازي ٢: ٥٩٣، ح ٣١٧٢، ح ٣١٧٣.

٣ ـ انظر: تفسير القرآن العظيم (تفسير المنار)، من دروس الشيخ محمد عبده، تأليف الشيخ محمد رشيد رضا ٣: ١٤٣ ـ ١٤٥، تعليق وتصحيح سمير مصطفى رباب، نشر دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأُولى، ١٤٢٣هـ، بيروت.

وهو قول ضعيف جداً، فآيات الأحكام مُحكمات وهي مع ذلك لا سبيل للعقل إليها.

التصوير السادس عشر: المُحكم هو الواضح الدلالة الظاهر الذي لا يحتمل النسخ، والمُتشابه الخفي الذي لا يُدرك معناه عقلاً ولا نقلاً، وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه، كقيام الساعة والحروف المقطَّعة في أوائل السور[١].

الصحيح في المقام

إنَّ الوجه المُختار يعتمد على ملاحظة زوايا أربع، وهي:

الزاوية الأُولى: خصوصية اللفظ؛ ونعني بها دوران الإحكام والتشابه حول دائرة اللفظ، من قبيل كلمة: (اليد) في قوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا**﴾[٢]، فإنَّ المراد من اليد متشابه فاحتاج الأمر إلى القرينة الصارفة التي تُؤدّي دور المُحكم، فيُقال: المراد قطع الأصابع من منبتها، لقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ**﴾[٣]، فالراحة والإبهام من المساجد السبعة فلا يُعتدى عليها.

الزاوية الثانية: خصوصية المعنى؛ قد يكون اللفظ ظاهراً في معناه، ولكن القرائن الحافة بالنصّ تصرفه عن معناه، كما في قوله تعالى: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[٤]، حيث تُصرف معنى اليد عن معناه إلى الأمر والقدرة.

الزاوية الثالثة: خصوصية التفسير؛ بمعنى أن اللفظ ظاهر في معناه، بل هو نصّ فيه، ولكن لشخصية المُفسر مدخلية في صرف اللفظ عن معناه، إما لقصور

---

١ ـ انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ٣: ١١٠، نشر إحياء التراث العربي، بيروت.

٢ ـ المائدة: ٣٨.

٣ ـ الجن: ١٨.

٤ ـ الفتح: ١٠.

في الصنعة، أو لقصدية سابقة على طلب المراد من النصّ، وهو ما نسميه بالاتجاه.

إذن فشخصية المفسر وقبلياته وعقائده ومقاصده قد تغيّر من مسار النصّ، فإن قيل بأنَّ ذلك خروج عن مفاد النصّ، قيل لنا بأنَّ الآية من المتشابهات، وهي حمّالة وجوه، والصحيح هو أنَّ المُفسّر حمَّال وجوه، لا النصّ بعينه.

الزاوية الرابعة: خصوصية التأويل؛ وهنا تُسكب العبرات.

والخلاصة فإنَّه من خلال هذه الخصائص الأربع يمكن لنا الخروج بعدة نتائج أولية، أهمّها هو أنَّ توسعة دائرة المُتشابه مردّه القارئ لا النصّ القرآني، وأنَّ المُتشابه في دائرة اللفظ والمعنى محدود جداً بالقياس للتشابه في دائرتي التفسير والتأويل[١].

الأمر الثاني: مُتعلَّق الإحكام والتشابه.

قال تعالى: ﴿**الَر ۞ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾[٣]، فكيف يُوصف بالإحكام تارة وأُخرى بالمتشابه؟.

والجواب: إنَّ وصفه بالإحكام كلياً لا يُراد منه الإحكام المتقدّمة، وإلا لانتفى وجود المُتشابه، وإنما المراد منه معنىً آخر؛ فهو مُحكم ومُفصَّل في معانيه، لا في ألفاظه، فالمعنى التفصيلي مهما كانت تفريعاته فإنَّ مردّه لمعنىً إجمالي واحد محفوظ في الكلّ، وهو توحيده سبحانه وتعالى، الحاكم على جميع تفصيلات القرآن الكريم؛ فالإحكام في المقام يعني مردّ المعاني التفصيلية إلى أصل واحد وهو التوحيد.

---

١ ـ انظر: منطق فهم القرآن، مصدر سابق.

٢ ـ هود: ١ .

٣ ـ الزمر: ٢٣ .

توجيه آخر للإحكام والتفصيل

للإحكام والتفصيل معنىً آخر لم يُلتفت له، وهو أنَّ الإحكام عنوان يحكي المعنى الكلي الذي أُنزل على الرسول الأكرمﷺ نزولاً دفعياً، فالإحكام يُقابل التفصيل، كما أنَّ النزول الدفعي يُقابل التدريجي، وبالتالي فإنَّ النزول التدريجي هو التفصيل بعينه، ومن مقتضيات التفصيل وقوع التشابه المتقدِّم في المعنى الأول.

بعبارة أُخرى: إنَّ القرآن كلّه مُحكم، ولكنه لشخص النبيﷺ في النزول الدفعي، وهو الموافق للإحكام الاصطلاحي في موضوع المُحكم والمُتشابه، والقرآن مُحكم ومُتشابه اصطلاحاً في دائرة التفصيل، وهو الواقع في نزوله التدريجي، فمتعلَّق الإحكام الكلي نزوله الدفعي الخاص بالرسولﷺ أصالةً وبأوصيائه وراثةً، والإحكام والتشابه الجزئيَّين مُتعلَّقهما النزول التدريجي، وهو لعامة الناس أجمعين، ليبتليهم بذلك، وليتبيَّن مَن في قلبه نور فيتَّبع المحكم ويردّ المُتشابه للمحكم، ومَن في قلبه زيغ فيتَّبع المُتشابه ويذر المُحكم، وما أكثرهم[1].

سرّ قسمة الآيات إلى مُحكم ومُتشابه

ما هو السرّ في قسمة الآيات إلى مُحكمات ومُتشابهات؟

يقول الرازي في إجابته الأُولى: إنّه متى كانت المتشابهات موجودة، كان الوصول إلى الحقّ أصعب وأشقّ، وزيادة المشقّة توجب مزيد الثواب.

ويقول في إجابته الثانية: لو كان القرآن محكماً بالكلّية لما كان مطابقاً إلاّ لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلاً لكلّ ما سوى ذلك المذهب، وذلك ممّا ينفّر أرباب المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه.

ويقول في إجابته الثالثة: إنّ القرآن إذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه،

---

١ ـ انظر: منطق فهم القرآن، مصدر سابق.

افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذ يتخلّص عن ظلمة التقليد ويصل إلى ضياء الاستدلال والبيّنة، أمّا لو كان كلّه محكماً لم يفتقر إلى التمسّك بالدلائل العقلية، فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد.

ويقول في إجابته الأخيرة: لمّا كان القرآن مشتملاً على المحكم والمتشابه، افتقروا إلى تعلّم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض، وافتقر تعلّم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وعلم أُصول الفقه، ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة، فكان إيراد هذه المتشابهات لأجل هذه الفوائد الكثيرة[١].

ولكنها إجابات يحسبها الظمآن ماءً، ولذلك يقول صاحب (المنار) في ردّه:(إنّه لم يأت بشيء نيّر ولم يحسن بيان ما قاله العلماء، وأسخف هذه الوجوه وأشدّها تشوّهاً الثاني، ولا أدري كيف أجاز له عقله أن يقول: إنّ القرآن جاء بالمتشابهات ليستميل أهل المذاهب إلى النظر فيه وأنّ هذا طريق إلى الحقّ؟ أين كانت هذه المذاهب عند نزوله؟ ومن اهتدى من أهلها بهذه الطريقة؟)[٢].

وقد حاول صاحب المنار أن يُقدّم إجابات عديدة بعد أن استهجن إجابات الرازي[٣]، وللإنصاف إنها إجابات مقبولة رغم أنها قابلة للنقد.

فما هو سرّ وجود المُتشابه في القرآن الكريم؟

هنالك بعض الوجوه مقبولة على المستوى الأول، مع تأمّل فيها، فهي:

الأول: إنّ في التشابه القرآني تحققاً عملياً لفلسفة رجوع الجاهل للعالم، فإذا كان القرآن كله مُحكماً ستضعف الحاجة للعلم والعلماء.

---

١ ـ انظر: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)،مصدر سابق ٧: ١٤٩.

٢ ـ انظر: تفسير القرآن العظيم (تفسير المنار)،مصدر سابق ٣: ١٤٩.

٣ ـ انظر: تفسير القرآن العظيم (تفسير المنار)مصدر سابق ٣: ١٤٩.

الثاني: في التشابه القرآني نوع إلجاء للأُمة للرجوع فيها إلى إمام زمانها، فيكون ذلك كاشفاً عن كون المتصدي إمام حقّ أم إمام زور.

الثالث: إنَّ في ذلك دعوتين معرفيتين، الأُولى للتعلّم وطلب التخصّص، والأُخرى للتأني والتأمل بنحو آكد وأشدّ في كلمات الله تعالى، لاسيَّما هنالك من لا يكفيه التفكّر والتدبر في آياته الأنفسية والآفاقية التكوينية، فاحتاج الأمر للتدبر في آياته التدوينية[1].

الرابع: إنَّ في القرآن أسراراً لا ينبغي أن يطّلع عليها من هو ليس أهلاً لها، فكان المتشابه.

الخامس: لمعرفة الصادقين بصدقهم والمنافقين بنفاقهم، وهو محلّ اختبار عظيم، فالحقّ شاخص في المُتشابهات، ولا غُبار عليه، ولكنها حمالة وجوه أيضاً، فيثبت للحقّ من كان الحقّ داعيه ومطلبه، ويزيغ من كان في قلبه مرض.

الوجه الصحيح في الانقسام:

يُمكن عرض الأسباب الكامنة من وراء وجود المُتشابه في القرآن الكريم من عدَّة زوايا، وهي:

الزاوية الأولى: إنَّ هنالك سبباً قسرياً تفرضه اللغة وعالم التدوين، فعالم التكوين الإمكاني وعالم الألفاظ التدويني قاصران عن الإلمام بالمعاني التامة والنهائية للقرآن الكريم في كافة مراتبه، فاللغة العربية لها قوالبها، وهذه القوالب غير قابلة للتغيير أو التطوير، فإذا ما حُمِّلت المعاني القرآنية العُليا فإنها تمنح المعاني ثوباً تفرضه نفس قوالب اللغة، ومن هنا ينشأ المحكم والمتشابه، فمن الألفاظ ما في المكنة من التعبير التام ويكون نصَّاً في معناه، ومنها ما تكون كذلك.

---

١ ـ انظر: المصدر السابق ٣: ٥٧.

ثم إنّ اشتمال القرآن على المتشابهات إنّما هو من اللوازم التي لا تنفكّ عن وجود التأويل للقرآن، ومعنى ذلك أنّ الله سبحانه لم يجعل الآيات بنحو تنقسم فيه إلى محكمة ومتشابهة بحيث كان بالإمكان التحرّز عن ذلك، حتّى يرد الإشكال المتقدّم؛ فإنّ الله سبحانه ذكر أنّ لكتابه تأويلاً، وأنّ هذا التأويل الذي تستقبله وتتوجّه إليه هذه البيانات أمرٌ تقصر عن نيله الأفهام وتسقط دون الارتقاء إليه العقول، إلاّ نفوس الذين طهّرهم الله وأزال عنهم الرجس، فإنّ لهم خاصّة أن يمسّوه؛ ولمّا كانت عامّة الناس لا يتجاوز فهمهم المحسوس ولا يرقى عقلهم إلى ما فوق عالم المادّة والطبيعة، كان ذلك موجباً لاختلاف الناس في فهم المعاني الخارجة عن الحسّ والمحسوس، اختلافاً شديداً ذا عرض عريض على مراتب مختلفة، وهذا أمرٌ لا ينكره أحد[1].

الزاوية الثانية: إنّ هنالك مجموعة من الأمثال القرآنية استعملت فيها الصورة المادية المحسوسة المعروفة للإنسان في حياته، كأمثال للمعارف الإلهية المجرّدة فيقع الفهم الإنساني في إدراكه لهذه المعارف الممثلة بين أمرين، قد يستلزم كل منهما محذوراً، وهما:

الأول: الجمود بهذه المعارف في مرتبة الحس المادي، وحينئذ تنقلب عن واقعها المجرّد الذي استهدفته الهداية القرآنية.

الثاني: الانعتاق من الإطار المادي للمثال، والقيام بعملية تجريد للخصوصيات غير الداخلة في التمثيل، وهذا يستلزم ـ أحياناً ـ الزيادة والنقيصة في هذه العملية أو الشدة والضعف. ولذا نجد القرآن يلجأ إلى عملية واسعة في التمثيل تفادياً لهذه المشاكل العقلية والنفسية، وذلك بتوزيع المعاني التي يريد من الإنسان إدراكها، وتربيته على تصورها إلى أمثال مختلفة، وجعلها في قوالب متنوعة، حتى يفسر بعضها بعضاً، ويوضح بعضها أمر بعض، لينتهي الأمر إلى تصفية عامة تؤدي إلى

---

١ ـ انظر: أصول التفسير والتأويل، للسيد كمال الحيدري: ٤٨٠، نشر دار فراقد، ١٤٢٧هـ، قم المقدسة.

النتيجتين التاليتين:

الأولى: إن البيانات القرآنية ليست إلا أمثالاً لها في ما ورائها حقائق ممثلة، وليس الهدف والمقصود منها مرتبطاً باللفظ المأخوذ من الحس والمحسوسات، فنتخلص بذلك من محذور الجمود.

الثانية: بعد الالتفات إلى أن البيانات القرآنية أمثال نعلم حدود المعنى الإلهي المقصود من وراء هذه البيانات، حين نجمع بين هذه الأمثال المتعددة وننفي بكل واحد منها خصوصية من الخصوصيات المأخوذة من عالم الحس، الموجودة في المثال الآخر، فنطرح ما يجب طرحه من الخصوصيات المحيطة بالكلام، ونحتفظ بما يجب الاحتفاظ به منها[1].

وأما الأمثلة القرآنية التي ضُربت في موضوع الحقّ والباطل، كما يراها السيد العلامة، فمن قبيل قوله تعالى: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّماء ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَة أَوْ مَتاع زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ**﴾[2].

وهنا يرى السيد العلامة الطباطبائي أنّ المراد هو أنّ الله سبحانه قد أنزل من السماء ـ وهي جهة العلوّ ـ ماءً بالأمطار، فسالت الأودية الواقعة في محلّ الأمطار المختلفة بالسعة والضيق والكبر والصغر بقدرها، أي كلٌّ بقدره الخاصّ به، فاحتمل السيل الواقع في كلّ واحد من الأودية المختلفة زبداً طافياً عالياً، وهو الظاهر على الحسّ يستر الماء ستراً؛ ثمّ قال سبحانه: ﴿**وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَة أَوْ مَتاع زَبَدٌ مِثْلُهُ**﴾، أي وما يوقدون عليه من أنواع الفلزّات والموادّ الأرضية القابلة

---

١ ـ انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق ٣: ٥٨ ـ ٦٥.

٢ ـ الرعد: ١٧.

للإذابة المصوغة منها آلات الزينة وأمتعة الحياة التي يتمتّع بها، والمعنى: ويخرج من الفلزّات والموادّ الأرضية التي يوقدون عليها في النار طلباً للزينة كالذهب والفضّة أو طلباً لمتاع كالحديد وغيره، يتّخذ منه الآلات والأدوات، زبد مثل الزبد الذي يربو السيل، يطفو على المادّة المذابة ويعلوه.

ثمّ قال: ﴿**كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ**﴾، أي: يثبّتهما، نظير ما فعل في السيل وزبده وما يوقدون عليه في النار وزبده؛ فالمراد بالضرب ـ والله أعلم ـ نوعٌ من التثبيت من قبيل قولنا: ضربت الخيمة أي نصبتها، وقوله: ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ**﴾[1] أي أُوقعت وأُثبتت، وإلى هذا المعنى أيضاً يعود ضرب المثل لأنّه تثبيت ونصب لما يماثل الممثّل حتّى يتبيّن به حاله.

فالجميع في الحقيقة من قبيل إطلاق الملزوم وإرادة اللاّزم، فإنّ الضرب ـ وهو إيقاع شيء على شيء بقوّة وعنف ـ لا ينفكّ عادةً عن تثبيت أمر في ما وقع عليه الضرب، كثبوت الوتد في الأرض بضرب المطرقة، وحلول الألم في جسم الحيوان بضربه، فقد أطلق الضرب وهو الملزوم وأُريد التثبيت وهو الأمر اللازم.

ثمّ قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾، فجَمَعَ بين الزبدين، أعني زبد السيل وزبد ما يوقدون عليه، وقد كانا متفرّقين في الذِكْر، لاشتراك الجميع فيما يذكر من الخاصّة، وهو أنّه يذهب جفاءً. وقد عدل عن ذكر الماء وغيره إلى قوله: ﴿**وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ**﴾، للدلالة على خاصّة يختصّ بها الحقّ، وهو أنّ الناس ينتفعون به وهو الغاية المطلوبة لهم. والمعنى فأمّا الزبد الذي كان يطفو على السيل ويعلوه أو يخرج ممّا يوقدون عليه في النار فيذهب جفاءً ويصير باطلاً متلاشياً، وأمّا الماء الخالص أو العين الأرضية المصوغة وفيها انتفاع الناس وتمتّعهم في معاشهم فيمكث في الأرض ينتفع به الناس.

---

[1] ـ البقرة: ٦١.

ثمّ قال: ﴿كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ﴾، وختم به القول، أي أنّ الأمثال المضروبة للناس في كلامه تعالى تشبه المثل المضروب في هذه الآية، في أنّها تميّز الحقّ من الباطل وتبيّن للناس ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم.

والغاية من ضرب هذا المثل في الآية هو بيان أمور تعدّ من كلّيات المعارف الإلهية، سواء على مستوى الأمور العينيّة والحقائق الخارجية، أو على مستوى العلوم والاعتقادات[1].

لا ريب بأنَّ هذا الوجه الوجيه في توجيه المُحكم والمُتشابه قد أعطى للمُحكم والمتشابه معنى عميقاً، ولكن هل يُمكن قبوله على إطلاقه في جميع الأمثال القرآنية؟، هذا ما ينبغي الوقوف عنده والتحقيق فيه، ولذلك نجد السيد الحكيم قدّس سرّه يقول بعدما ذكر هذا الوجه:(ولا شك أن هذا الوجه من أروع ما قيل في تفسير ظاهرة وجود المتشابه، ويمكن أن يعتبر تعليلاً وجيهاً لورود الكثير من الآيات المتشابهة، ولكننا لا نقبله تعليلاً شاملاً لكل ما ورد في القرآن من المتشابهات، حيث نرى أن بعضها لا يمكن تحديد مصداقه بشكل قاطع، بناء على مذهبنا في حقيقة المتشابه الذي عرفنا فيه أن المفهوم اللغوي له مفهوم صحيح، وليس باطلاً لينتفي الريب بواسطة الأمثلة الأخرى القرآنية.

وفي نهاية المطاف يجدر بنا أن نذكر خلاصة الوجه الصحيح في حكمة ورود المتشابه في القرآن، وبهذا الصدد يحسن بنا أن نقسم المتشابه إلى قسمين رئيسين:

الأول: المتشابه الذي لا يعلم تأويله ومصداقه إلا الله تعالى.

الثاني: المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله تعالى والراسخون في العلم، ولو كان ذلك بتعليم الله تعالى لهم.

أما ورود القسم الأول في القرآن، فلأن من الأهداف الرئيسة التي جاء من

---

١ ـ انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق ١١: ٣٣٦.

أجلها القرآن الكريم هو ربط الإنسان الذي يعيش الحياة الدنيا بالمبدأ الأعلى وهو الله سبحانه، وبالمعاد وهو الدار الآخرة وعوالمها. وهذا الربط لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق إثارة الموضوعات التي تتعلق بعالم الغيب وما يتصل به من أفكار ومفاهيم، لينمي غريزة الإيمان التي فطر الإنسان عليها، ويشدّه إلى عالمه الذي سوف ينتهي إليه، فلم يكن هناك سبيل أمام القرآن الكريم يتفادى به المتشابه في القرآن بعد أن كان هو السبيل الوحيد الذي يوصل إلى هذا الهدف الرئيس.

وأما ورود القسم الثاني في القرآن الكريم بهذا الأسلوب فإنه أراد أن يطرح أمام العقل البشري قضايا جديدة، كبعض المسائل الكونية أو الإنسانية وغيرها من المفاهيم الغيبية، لينطلق في تدبر حقيقتها واكتشاف ظلماتها المجهولة، أو يقترب منها بالقدر الذي تسمح له معرفته ودرجته في تلك المعرفة، كما ذكر العلامة الطباطبائي. ونحن في هذا العصر حين نعيش التطور المدني العظيم في المجالات العلمية المختلفة ندرك قيمة بعض الآيات القرآنية التي ألمحت إلى بعض الحقائق العلمية، ووضعتها تحت تصرف الإنسان لينطلق منها في بحثه وتحقيقه، وكذلك بعض المصاديق الإنسانية)[1].

الزاوية الثالثة: إلزام الأُمّة بالرجوع إلى الإمام المعصوم عليه السلام، فلو كان القرآن كلّه مُحكماً لقيل بعدم الحاجة للرجوع للنبي وللإمام المعصوم من بعده، ولكنَّ وجوده داعٍ عملي للرجوع إليهما، نظراً لكون الأُمة مأمورة بالرجوع للقرآن والتمسّك به، وما دام هنالك مُتشابهاً فالتمسّك بالقرآن سيبقى قاصراً وناقصاً لعدم معرفة المتشابه، وبذلك تكون الأُمة ملزمة بالرجوع للإمام المعصوم، ومن هنا يتأكّد للأُمة بأنها في معرض الضلال بدون الرجوع للإمام المعصوم.

---

١ ـ علوم القرآن، مصدر سابق: ١٨٨ ـ ١٨٩.

اختلاف المحكم والمتشابه باختلاف القارئ

إنَّ المُحكم مُحكم لقارئه، والمُتشابه مُتشابه لقارئه أيضاً، ممَّا يعني أنَّ دائرة الخلاف سوف تشمل المُحكم أيضاً، ولكن بلحاظ القارئ لا بلحاظ المُحكم نفسه، وهذا ما يحصل عادة بالنسبة لأصحاب الاتجاهات والقبليات النافذة.

القرآن كلّه مُحكم وكُلُّه مُتشابه

إنَّ القرآن الكريم كلّه مُحكم لمن خُوطب به، وتنزَّل في بيوتهم التي أذن الله أن تُرفع، النبي الأكرمﷺ وعترته الطاهرةعليهم السلام وراثةً، ولذلك لزم على الأُمة قاطبة الرجوع إليهم والتسليم لهم تسليماً، وفي ذلك الرحمة التامة؛ كما أنَّ القرآن الكريم كلّه مُتشابه أيضاً لمن كان في قلبه زيغ ومرض وبيل، وتجلّيات هذا الزيغ وأعراضه تظهر بقوة في الآيات المُتشابهة.

أسئلة الحاضرين:

١ ـ روي أنّ من فسَّر القرآن برأيه يتبوأ مقعده من النار، ما المقصود من قوله برأيه؟ وهل فهم عامة الناس من القرآن هو تفسير بالرأي؟

الجواب: قوله برأيه يعني بغير دليل، أو بغير منهج تفسيري معتبر، فالرأي الشخصي يقع في قبال الدليل والمنهج؛ وأما فهم عامة الناس فإنه إن كان في النصوص التي لا تحتاج إلى تفسير فهو ليس من التفسير بالرأي، وإن كان من النصوص التي تحتاج تفسيراً فهو تفسير بالرأي، وينبغي لعامة الناس السؤال عن كل آية قرآنية وأخذ معناها من أهل الاختصاص؛ لضمان حصول الفهم الصحيح لهم.

٢ ـ هل يُمكن القول بأنَّ الحكمة من الآيات تقسيم القرآن إلى محكم ومتشابه هو لكي يتنوّع التفسير؟

الجواب: كلا، فذلك من نتائج المحكم والمتشابه، وأما الحكمة أو السرّ في قسمته لذلك فقد فصَّلنا فيها، فراجع.

٣ ـ هل للظاهر علاقة بالمحكم، وللباطن علاقة بالمتشابه؟

الجواب: نعم هنالك علاقة وثيقة، بل يُمكن القول بأنَّ الظاهر الواقع في قبال الباطن هو تعبير آخر عن المحكم، كما أنَّ الباطن تعبير آخر عن المحكم، وعالم المحكم والظاهر هو التفسير، وعالم المتشابه والباطن هو التأويل.

الفصل الثالث

أبحاث في فهم القرآن

- **الدرس الأول:** المراد من فهم القرآن.
- **الدرس الثاني:** أدلة فهم القرآن الكريم.
- **الدرس الثالث:** أدلة المانعين لفهم القرآن الكريم.
- **الدرس الرابع:** موانع فهم القرآن الكريم، أو أدلة الامتناع.
- **الدرس الخامس:** قواعد وأُصول فهم القرآن.
- **الدرس السادس:** القواعد الأُخرى التي لابدَّ من معرفتها.
- **الدرس السابع:** علاقة المناهج والأساليب التفسيرية بقواعد فهم القرآن.
- **الدرس الثامن:** مصادر ومنابع فهم القرآن الكريم.
- **الدرس التاسع:** نكات مهمة مع بيان وظيفتنا تجاه القرآن الكريم.

الدرس الأول: المراد من فهم القرآن

الفهم مفردة لم يُسلَّط عليها الضوء كثيراً من قبل المهتمين بالعملية التفسيرية وعلوم القرآن، حيث إنهم اكتفوا بتعريف التفسير والتأويل، وظنوا أنَّ الفهم يندرج ضمن ذلك، فكانوا يُطلقون كلمة الفهم ويُريدون بها التفسير، مع أنَّ المسألة ليست كذلك، كما سيتضح.

الفهم في اللغة كما يراه الفراهيدي يعني المعرفة والتعقّل، فتقول: فهمت الشيء يعني عرفته، أو عقلته[1]؛ إلا أنَّ هنالك من يراه أنه المعرفة القلبية[2]؛ فهنالك معرفة عقلية وأُخرى قلبية، وكلاهما يُطلق عليهما عنوان الفهم.

ولعل المعرفة والعلم هما أقرب لمعنى الفهم لغةً، وقد ورد هذا الاستعمال في القرآن مرةً واحدةً فقط، وهو قوله تعالى: ﴿**وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۞ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ**﴾[3]، أي فعرّفناها ـ والمراد هنا الحكم والحكومة ـ لسليمان، ونظراً لكون التلقِّي من قبل الأنبياء بواسطة الوحي فإنَّ المعرفة القلبية أرجح في المقام من المعرفة العقلية؛ فإنَّ

---

١ ـ انظر: كتاب العين، خليل بن أحمد الفراهيدي ٤: ٦١، انتشارات هجرت، ١٤١٠هـ، الطبعة الثانية، قم.

٢ ـ انظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي ١٢: ٤٦٠، نشر دار صادر، ١٤١٤هـ، الطبعة الثالثة، بيروت.

٣ ـ الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩.

المعارف الوحيانية تُودعُ في القلوبِ وتعيها العقولُ وتُبلِّغُها الألسن.

وأما الفهم في الاصطلاح فليس هنالك تعريف وحدٌّ صريح للفهم، ولكن هنالك مضمون عام يُرد به وصول المطالب كاملة إلى المُتلقِّي، بمعنى أنَّ من تلقَّى المطالب العلمية والمعنوية بصورة كاملة يكون قد فَهِم أو حصلت له عملية الفهم.

ولكننا نرى الأمر أعمق من ذلك فيما يتعلَّق بالقرآن الكريم، فهو بحسب التحقيق عملية إجرائية تعتمد على مجموعة مقدَّمات علمية ومعنوية تهدف للوصول إلى المضامين الحقيقية للنصّ القرآني؛ والمراد بالمقدَّمات العلمية جميع الأدوات والقواعد التفسيرية، كما أنَّ المراد بالمقدَّمات المعنوية جميع المقدَّمات والقواعد التأويلية؛ ونظراً لكون التفسير يُعالج الظاهر القرآني فقد عبَّرنا عنه بالمقدَّمات العلمية، ونظراً لكون التأويل يُعالج الباطن القرآني فقد عبَّرنا عنه بالمقدَّمات المعنوية.

وبناءً على ذلك فكل ما نشترطُه في شخصية المُفسِّر ليس إلا مقدَّمة في شخصية من يُريد فهم القرآن الكريم، والكلام في شخصية المُؤوِّل، فلا المُفسِّر وحده يكون قد فهم القرآن فهماً حقيقياً، ولا المُؤوِّل وحده يكون قد فهم القرآن، وإنما من اجتمعت عنده أدوات التفسير والتأويل معاً يكون قد فهم القرآن فهماً حقيقياً فيما إذا مزج بين النتاجين التفسيري والتأويلي معاً، وانتهى عند نتيجة وحصيلة مُؤدَّاها فهم القرآن أو النصّ القرآني المقروء.

نعم، إنَّ المُفسِّر ينال مرتبة دانية من مراتب فهم القرآن الكريم، كما أنَّ المؤوِّل ينال مرتبة أعلى من مرتبة المفسِّر من مرتب الفهم، وأما من تمكَّن من الجمع بين المرتبتين التفسيرية والتأويلية فإنه يكون قد نال مرتبة عالية جداً من مراتب الفهم.

وبطبيعة الحال هنالك مراتب للفهم تتعلَّق بنفس مراحل التفسير، فالتفسير المفرداتي يُمثل مرتبة متدنية جداً من مراتب الفهم، كما أنَّ التفسير التجزيئي الجُملي يُمثل مرتبة من الفهم أشرف وأعلى من مرتبة التفسير المفرداتي، وهكذا.

والخلاصة في كلِّ ذلك: هو أنَّ فهم القرآن عملية إجرائية لا تُرادف التفسير أو التأويل، وإنما هي أشرفُ مرتبةٍ معرفياً منهما؛ هذا بالنسبة للشطر الأول من السؤال المتعلِّق بمفردة الفهم.

ضرورة الفهم

إنَّ ضرورة الفهم تبدو واضحةً في ضوء ما قدَّمناه من مساحة الفهم، فلا ريب في أهمية التفسير وضرورته، كما لا ريب في أهمية التأويل وضرورته أيضاً، ومن خلال هاتين الأهميَّتين والضرورتين تترشَّح أمامنا ضرورة الفهم ومدى عُمقها باعتبارها حصيلة الجمع بين النتاجين التفسيري والتأويلي.

إنَّ البحث في ضرورة فهم القرآن الكريم وبيان مراتبه من الأهمية بمكانٍ كبير، فدون الوقوف على ذلك يبقى المخاطبون في منأى عن النصوص القرآنية، فالفهم وإدراكُ مراتبيته مهمةٌ أساسيةٌ في طريق التعاطي مع القرآن الكريم، ولذا فالحاجة ماسّة لهما؛ وتشتدّ الحاجة لذلك لاعتبار آخر يتعلَّق بامتداد المساحة الزمنية بيننا وبين عصر النص، وكلَّما تباعدت المدة وعظمت المساحة اشتدت الحاجة لدراسات معمَّقة في مفردتي الفهم والمراتب معاً.

فإذا ما تصوّرنا ابتداءً أنَّ هنالك محطاتٍ تستدعي التوقّفَ عندها فإنَّ أهمّها عمق الفاصلة الزمنية وعمق معنى الفهم، ومن ذلك يترشّح أمامنا أهميةُ البحث في ذلك وجدوائيتُه، وإذا ما أضفنا حقيقة وواقعية الفقر الشديد لمكتباتنا الإسلامية في وجود دراسات تخصّصية في موضوع فهم القرآن فإنه يتأكَّد لنا أهمية ما نحن بصدده.

إنَّ الفاصلة الزمنية الطويلة بيننا وبين نزول النصّ القرآني أوجدت عدة مشكلات معرفية، فالقرآن الكريم كان ولا زال بياناً وتبياناً لكلِّ شيء، ولكننا نحن تخلَّفنا عنه معرفياً، فاحتاج الأمر إلى نظم العملية الإجرائية في فهمه.

وهنالك كلمة مهمة لأُستاذنا المفسِّر والمُحقِّق الكبير العلامة معرفة رحمه الله يقول فيها: (أنزل الله الكتاب ليكون بذاته بياناً للناس عامة وتفصيلاً لكل شيء، غير أنَّ بواعث الإبهام أمر عارض، ولعله كان من طبيعة البيان القرآني جاء تشريعاً للأُصول والمباني)[١]، فهو من جهة يُثبت عُروض الإبهام، ومن جهة يُبيِّن لنا الوظيفة المعرفية الأساسية للقرآن الكامنة في التأسيس للأُصول والمباني، وهي بطبيعة الحال بحاجة ماسَّة للتفريع.

ولا ريب بأنَّ القرآن الكريم ـ على حدِّ تعبير العلامة معرفة ـ قد احتوى على معانٍ دقيقة ومفاهيمَ دقيقة ورقيقة، تُنبؤك عن كمون الخليقة وأسرار الوجود، وكانت فوق مستوى البشرية آنذاك[٢]، وهذا ما يُعمّق وجه الحاجة لفهم القرآن لاستجلاء المعاني الوجودية العليا منه.

وأخيراً يُمكن القول بأنَّ فهم القرآن الكريم يمثل ضرورة حياتية، بمعنى أنَّ صلاح الحياة بصلاح النفوس لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[٣]، وأنَّ صلاح النفوس لا يكون إلا بفهم القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾[٤]، وشفاء الصدور هو عين صلاحها.

تفسير القرآن لا يعني فهمه

في ضوء المبنى الذي قدَّمناه، فإنَّ العملية التفسيرية في جميع مقدَّماتها ليست

---

١ ـ التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، للشيخ المحقق محمد هادي معرفة ١: ١٨ ـ ١٩، نشر الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ، مشهد، إيران.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ الرعد: ١١.

٤ ـ يونس: ٥٧.

إلا مقدَّمة من مقدَّمات الفهم الحقيقي للنصّ القرآني، بخلاف المشهور على الألسن من كون الفهم هو نفس التفسير، فذلك فهم خاطئ لمفردة الفهم فيما يتعلَّق بالقرآن الكريم.

نعم، إنَّ التفسير يُمثل مرتبة متدنية من مراتب الفهم الحقيقي، فهو من قبيل ما يُمثله هذا الوجود الحسِّي الخارجي بالنسبة للوجود الكلِّي العام، فهو وجود ظلِّي أو هو كما يُطلق عليه بالرقيقة الحاكية عن الحقيقة، ولكنها ليست هي الحقيقة، فالتفسير من هذا القبيل، فهو مرتبة ظلِّية ورقيقة تحكي الحقيقية القرآنية التي ننالُها بالفهم الاصطلاحي الآنف الذكر، ومن الواضح بأنَّ الرقيقة ليست هي الحقيقة.

أما بالنسبة لإمكان فهم القرآن فإجمالاً لا ريب في ذلك، وإلا لا معنى لنزوله ومطالبتنا بالتمسّك به، ولكنّ الأمر يحتاج منا وقفاتٍ طويلةً على أدلة الفهم.

هنالك مجموعة أدلة عقلية وأُخرى نقلية تنصّ على إمكان فهم القرآن، بل وعلى ضرورة فهم القرآن؛ وقبل ذلك ينبغي التنبيه لأمرين مهمّين، هما:

الأمر الأول: إننا نبحث في إمكان الفهم لا إمكان التفسير، فإمكان التفسير لا يُساوي إمكان فهمه، بخلاف إمكان فهمه فإنه يشمل إمكان تفسيره، وبعبارة أُخرى: إذا ثبت لنا إمكان فهم القرآن فمن باب أولى يثبت لنا إمكان تفسيره.

الأمر الثاني: هنالك مسلك إفراطي يتجاوز مسألة إمكان فهم القرآن إلى الوقوف على طرف نقيض من المانعين من فهمه الذين يُمثلون الجانب التفريطي؛ حيث يُغلقون دائرة الفهم مطلقاً؛ وأما أصحاب المسلك الإفراطي فإنهم يرون أنّ القرآن الكريم واضح جلي لا يحتاج إلى تفسير، وفي صورة الحاجة لذلك فإنّ القرآن بنفسه يتصدّى لذلك.

والصحيح هو الوسطية في ذلك، فلا إفراط بإنكار الحاجة لتفسير القرآن وفهمه، ولا تفريط بإلغاء إمكان فهمه، وإنما الصحيح بحسب التحقيق هو إمكان فهمه، ولكن بعد التزوّد بأدوات الفهم.

الأدلة والقرائن العقلية والوجدانية على فهم القرآن

الدليل الأول: إنّ القرآن الكريم يمثل دستوراً إلهياً للإسلام والمسلمين، فكيف يُمكن القبول به كدستور وهو غير قابل للفهم؟ فلابدّ من القول بإمكان فهمه للأخذ به.

الدليل الثاني: إنّ القرآن الكريم تحدّى الناس أجمعين وعجزهم عن الإتيان

بمثله، فلو كان غير قابل للفهم فلا معنى للتحدي بـه، حيـث يُمكـن للخصـوم ردَّ ذلك من أنَّ هذا القرآن لا يُفهم فكيف تتحدّانا به؟!

الدليل الثالث: إنَّا قد أُمرنا بالتمسّك بالقرآن الكريم والعمل به، فكيـف نُـؤمر بذلك وهو غير قابل للفهم؟ وعليه فالأمر به فرع إمكان فهمه، وهذا واضح.

الدليل الرابع: إنَّ من شرائط المعجزة هـو أن تكـون معلومـة مفهومـة، لكـي تكون مؤثرة، لا أن تكون غامضة مبهمة، ومن الواضح بأنَّ القرآن الكريم هو معجزة النبي والشاهد على صدقه، فكيف يكون القرآن معجزة وشـاهدَ صـدق وهـو غيـر قابل للفهم؟!

الدليل الخامس: إنَّ القرآن الكريم يُعتبر المصدر الأول مـن مصـادر التشـريع بإجماع المسلمين المتقدِّمين والمتأخّرين، فكيف يكون مصدراً تشريعياً وهـو غيـر قابل للفهم؟!

الدليل السادس: إنَّ قراءة وتلاوة القرآن الذي بين أيـدينا تضـع أمامنـا دلـيلاً وجدانياً في إمكان فهم القرآن ولو بمراتب معينة، فلا يوجـد أحـد عـارف باللغـة العربية ويقرأ القرآن دون أن يفهم منه شيئاً، وهذه مسـألة ثابتـة بالوجـدان، حيـث يُمكن لكل أحد التثبّت من ذلك.

الأدلة النقلية على الفهم، وهي على قسمين، قرآنية وروائية.

الأدلة القرآنية

أولاً: قوله تعالى: ﴿**فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَـنْ أَظْلَـمُ مِمَّـن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَـذَابِ بِمَـا كَانُواْ يَصْدِفُونَ**﴾[1]؛ فكيف يكون بيِّنة وهدى ورحمة وهو غير قابل للفهم؟ وكيـف

---

١ ـ الأنعام: ١٥٧.

يصف الذين يعرضون عن القرآن بالظلم ويتوعَّدهم بالعذاب وهو غير قابل للفهم؟ أليس ذلك منافياً للعدل الإلهي؟

إنَّ القول بعدم إمكان فهمه سيعطي الحجة للكفَّار والمشركين من كونهم لم يُكذِّبوا بآيات الله، لأنهم لم يفهموا القرآن، فلا معنى لتوبيخِهم وتعذيبهم.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[1]؛ والكلام هو الكلام.

ثالثاً: ما جاء في آيات الأمر بالتدبر في القرآن، من قبيل قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[2]؛ والأمر بالتدبر فيه دليل على إمكان فهمه.

رابعاً: ما جاء في الخطابات العامة التي اشتملت على: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَا بَنِي آدَمَ، يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ**﴾؛ فلا معنى لمخاطبة هؤلاء بخطاب غير قابل للفهم، وهذا واضح؛ فوقوع الخطاب منه دليل على إمكان فهمه.

الأدلة الروائية

أما الروايات فكثيرة جداً، من قبيل روايات العرض على الكتاب، واللجوء إليه في الفتن.

أولاً: روايات العرض، من قبيل ما رُوي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال:(قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **إنَّ على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتابَ الله فخذوه وما خالف كتابَ الله فدعوه**)[3]، فكيف تتَّضح موافقة

---

١ ـ النحل: ٨٩.

٢ ـ محمد: ٢٤.

٣ ـ أُصول الكافي، مصدر سابق ١: ٦٩، ح ١. باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب.

الخبر للقرآن من دون إمكان فهم القرآن؟!

وعن أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول:(**كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف**)[١]، وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام أنه قال: (**ما لم يوافق من الحديث القرآنَ فهو زُخرُف**)[٢]؛ والدلالة فيهما واضحة.

ثانياً: روايات الأمر باللجوء إلى القرآن عند وقوع الفتن، من قبيل: قول رسول الله صلى الله عليه وآله: (**فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفَّع... لا تحصى عجائبه ولا تَبلى غرائبُه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليلٌ على المعرفة لمن عرف الصفة**)[٣]؛ وعليه فكيف نأوي للقرآن في درء الفتن وهو غير قابل للفهم؟!

جدير بالذكر: إنَّ هنالك روايات أُخرى تتعلَّق بالأمر بالتفكّر والتدبّر في القرآن تُؤيد موضوع إمكان فهم القرآن أيضاً.

وبذلك نخلص إلى أمرين مهمّين، الأول: إمكان فهم القرآن الكريم بل ووقوعه أيضاً، ولكن ضمن مراتب سيأتي بيانها فيما بعد.

والثاني: هو أنَّ أدلة إمكان الفهم عقلية وجدانية قرآنية روائية؛ هذا فضلاً عن سيرة المسلمين الثابتة لنا بالتواتر على إمكان فهمه، ولعل المصنَّفات التفسيرية خيرُ شاهد على ذلك.

مراتبية فهم القرآن:

وأما ما يتعلَّق بمراتبية الفهم، فالصحيح هو وجود مراتب كثيرة للفهم، وهذه

---

١ ـ المصدر السابق ١، ٦٩، ح ٣. باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب.

٢ ـ المصدر السابق ١، ٦٩، ح ٤. باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب.

٣ ـ المصدر السابق ٢، ٥٩٨، ح ٢.

المراتبية يُمكن أن تُلحظ من عدة زوايا، وهي:

الزاوية الأولى: مراتبية الفهم بلحاظ النصّ القرآني.

الزاوية الثانية: مراتبية الفهم بلحاظ قارئ النصّ.

الزاوية الثالثة: مراتبية الفهم بلحاظ أدوات الفهم.

أما مراتبية الفهم بلحاظ النصّ القرآني ففي القرآن نصوص تتفاوت في سعتها المعرفية، فآية الكرسي مثلاً تشتمل على مطالب عُليا تتعلَّق بالمعرفة الأسمائية، قال تعالى: ﴿**اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾[1]، فالله اسم علم للذات المقدسة وهو اسم مُجمل أُجملت فيه جميع الأسماء والصفات، وهذا الإجمال تم تفصيله بقوله: ﴿**الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾، والْحَيُّ: اسم جامع لجميع الأسماء والصفات الذاتية، والْقَيُّومُ اسم جامع لجميع الأسماء والصفات الفعلية؛ في حين لو أخذنا نصَّاً آخر من قبيل قوله تعالى: ﴿**ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾[2]، نجد الانتقال من الإجمال في قوله: ﴿**ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ**﴾ إلى تفصيل محدود جداً في صفة محدودة من الصفات الفعلية، وهو قوله: ﴿**خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾، وهنا سوف تتحدّد أمام قارئ النصّ مساحات معينة تتلاءم مع المستوى المعرفي للنصّ، أي إنه سوف ينتهي إلى مرتبة معرفية منسجمة مع مستوى النصّ المقروء.

وأما بالنسبة للزاوية الثانية المتعلقة بمراتبية الفهم بلحاظ قارئ النصّ، ففي المثال السابق نجد أنَّ من قرأ هذا النصّ القرآني وكان ينطلق من رؤية كلامية أو فلسفية مشائية فإنه سوف يُقدِّم مستوىً من القراءة محدوداً بمبانيه الكلامية أو الفلسفية، حيث يتحدث عن العينية وغير العينية في وصفه للأسماء والصفات الإلهية، في حين نجد أصحاب مدرسة الحكمة المتعالية والعرفاء يتحدثون في مثل

---

١ ـ البقرة: ٢٥٥.

٢ ـ الأنعام: ١٠٢.

هذه الصفات عن معانٍ أُخرى تتعلَّق بالمظهرية، وأنَّ لكل عينة وجودية مرجعية أسمائية يكون مظهراً لها، وهي ظاهرة فيه.

وأما بالنسبة للزاوية الثالثة المتعلِّقة بمراتبية الفهم بلحاظ أدوات الفهم فذلك واضح جداً، ولنُقرِّب الفكرة من خلال عرض بعض الأدوات، فهنالك ما يُسمَّى بالأساليب التفسيرية، من قبيل الأُسلوب المفرداتي، والأُسلوب الجُملي التجزيئي، والأُسلوب الموضوعي، ولاريب بأنَّ لكل أُسلوب معطياتٍ تختلف من حيث العمق المعرفي عن الآخر، فالنتائج التفسيرية للمفردات تمثل مرتبة من مراتب الفهم الدانية قياساً بما تقدِّمه النتائج التفسيرية على المستوى الجُملي التجزيئي، وهكذا نجد نتائج المُستوى الجُملي يمثل مرتبة دانية المعطى التفسيري للأسلوب الموضوعي.

أي لو قرأنا نصَّاً قرآنياً واحداً تارة بواسطة الأسلوب المفرداتي وتارة بواسطة الأُسلوب الجُملي وتارة بواسطة الأُسلوب الموضوعي فإنَّ النتائج سوف تختلف كثيراً من حيث السعة والعمق، وهذا ما عنيناه باختلاف المراتب المعرفية في فهم النصّ بلحاظ أدوات الفهم، وهكذا الحال لو قرأنا النصّ بواسطة الأدوات التأويلية؛ كما أننا لو انتهينا إلى خلاصة التناجين التفسيري والتأويلي فإننا سوف نتتهي إلى مراتب معرفية تختلف كثيراً من حيث السعة والعمق.

ومن هنا يتضح بأنَّ منشأ هذه المراتب هي الزوايا الثلاث التي أجملنا الحديث فيها؛ وهي مراتبية الفهم بلحاظ النصّ القرآني، ومراتبية الفهم بلحاظ قارئ النصّ، ومراتبية الفهم بلحاظ أدوات الفهم.

وهنا أودّ إلفات النظر إلى قضية مهمَّة وحسَّاسة، وهي أنَّ مساحة المراتب في فهم النصّ القرآني غالباً ما تتشخَّص من خلال المساحة المعرفية التي عليها قارئ النصّ، فمن اجتمعت لديه أكبر عدد ممكن من أدوات الفهم سوف يخرج بنتائج تختلف كثيراً عمَّن اقتصر عمله على عدد قليل من أدوات الفهم، كما أنَّ المُتبنيات السابقة لها دور فعَّال في تحديد مراتبية الفهم؛ فهنالك من ينساق لقبلياته أكثر من

انسياقه لمُعطيات النصّ نفسه، وبالتالي سوف يدور في مرتبته المعرفية لا في مرتبة النصّ المقروء، في حين يأتي قارئ آخر ينساق لمعطيات النصّ ويهمل قبلياته المحدودة فيخرج بمعطى قرآني صحيح يتناسب مع المرتبة المعرفية للنصّ.

ومن المؤسف جداً هو أنَّ الأعم الأغلب من قرَّاء النصّ نجدهم ينساقون وراء قبلياتهم مُخلِّفين المعطى النصِّي وراء ظهورهم، فيكون نتاجهم المعرفي مُتقوقعاً من ناحية، ومشوباً بشبهة التفسير بالرأي من ناحية.

اتضح بأنَّ فهم القرآن بالمعنى المُتقدِّم يشتمل على معاني أعمق وأدق من التفسير، من هنا يُمكن القول بأنَّ المانعين من تفسير القرآن هم أنفسهم سيكونون مانعين من فهمه بالأولوية، بل ذلك هو القدر المُتيقَّن لترجيح زيادة رقعة المانعين.

جدير بالذكر أنَّ المانعين من تفسير القرآن عادة ما يُعبّر عنهم بالمانعين من فهمه ويُريدون بذلك المنع تفسيره، وعلى أيِّة حال فإنَّ أدلة المنع يُمكن تقسيمها إلى قسمين أساسيين، هما:

القسم الأول: أدلة المانعين من فهم القرآن.

وهو مجرد اجتهاد خاطئ ـ كما سيتضح ذلك ـ وهذا هو المعروف في الأروقة العلمية بأدلة المانعين من فهم القرآن.

القسم الثاني: موانع الفهم أو أدلة الامتناع.

وموانع الفهم لا تعني عدم إمكان فهمه، وإنما تعني أنَّ من تعبَّأ بها سوف يمتنع عليه فهمه.

إذن هنالك أدلة تُساق لإثبات منع فهم القرآن، وهنالك صفات تمنع من فهم القرآن، وأدلة المنع باطلة جملة وتفصيلاً بعد أن اتضح لنا إمكان فهمه وضرورته، ولكننا سنقف عندها لتوكيد فكرة تحقّق فهم القرآن فضلاً عن إمكانه.

أما أدلة المانعين فيُمكن حصرها بما يلي:

الدليل الأول: اشتمال القرآن على المُتشابه من جهة، وصعوبة تحديد المتشابه منه من المحكم من جهة ثانية.

وجوابه: إنَّ اشتمال القرآن على المتشابه لا يمنع من تحصيل الفهم وذلك لأمرين مهمّين، هما:

الأول: إنَّ أكثر القرآن محكم وليس مُتشابهاً، بل إنَّ عدد المتشابه منه معلوم ومحدود جداً.

الثاني: إنَّ هنالك قاعدة معمول بها لدى أعلام الفريقين لمعالجة المتشابه، تنصّ على إرجاع المتشابه للمحكم، وفي صورة عدم الفصل في ذلك يُترك العمل بالمتشابه منه ـ وهو قليل جداً ـ، وهذا الترك مجرد تصوّر أولي، وإلا فالسنة الشريفة تعرَّضت للمتشابه منه وبيَّنت الكثير من مقاصده.

الدليل الثاني: إنَّ الفاصلة الزمنية بيننا وبين نزول القرآن طويلة جداً، ممَّا أوجد مسافة كبيرة بيننا وبين فهم النصّ، لضعف وترهّل لغتنا من جهة، وقوة ومتانة لغة القرآن من جهة أُخرى؛ كما أنَّ فقدان القرائن الحالية التي كانت تحفّ النصّ عامل كبير في غياب المعاني الحقيقية له، أضف إلى ذلك انحسار الروايات التفسيرية واختلاطها بالإسرائيليات[1]، كل ذلك يُشكِّل حاجزاً حقيقياً يمنع القرَّاء من فهمه.

والجواب: إنَّ الفاصلة الزمنية الطويلة داعية لزيادة التدبر فيه لا للمنع من فهمه، وأما ضعف لغتنا وترهّلها فذلك صحيح ومقبول فيما إذا كان المطلوب من عامة الناس التصدّي لتفسير القرآن وتأويله وفهمه بالمعنى الاصطلاحي للفهم، إلا أنَّ الأمر ليس كذلك تماماً، فإنَّ المعنيّين بفهم القرآن هم المتخصّصون بعلوم القرآن لا غير، أو من اجتمعت فيهم شرائط معينة أسميناها بالمقدَّمات العلمية والمعنوية.

---

١ ـ الإسرائيليات: جمع الإسرائيلية، وهي قصة أو أُسطورة تُروى عن مصدر إسرائيلي، سواء كان عن كتاب أو شخص تنتهي إليه سلسلة إسناد القصة، وهذا الاصطلاح استعمله علماء التفسير والحديث، ويُريدون به كل ما تطرق إلى التفسير والحديث والتاريخ من أساطير قديمة، انظر: كتاب (التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب)، مصدر سابق ٢: ٥٩٤.

الدليل الثالث: إنَّ الفهم لا يتجاوز أكثر من معرفة الظاهر القرآني، والظاهر القرآني ليس بحجَّة؛ لأنه لا يكشف عن المعنى الحقيقي والمراد الجدّي للمتكلِّم.

وجوابه: إنَّ إبطال العمل بالظاهر مخالف لجميع السِّيَر العقلائية المتقدِّمة والمتأخِّرة، ولا قائل به إلا المانعين فلا يُؤخذ بقولهم، وبالإمكان مراجعة جميع مصنّفات أُصول الفقه حيث أشبعوا هذا المطلب بحثاً وأثبتوا بالأدلة الصحيحة والرصينة صحَّة العمل بالظاهر القرآني[١].

الدليل الرابع: هنالك بعض الروايات تمنع من تحقيق الفهم، من قبيل ما رُوي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال لأبي حنيفة:(**أنت فقيه العراق؟ قال: نعم، قال: فبم تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حقَّ معرفته؟ وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: نعم، قال: يا أبا حنيفة لقد ادعيت علماً، ويلك ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلا عند الخاص من ذرّية نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله، وما ورثك الله من كتابه حرفاً**)[٢].

وفي رواية أُخرى من قبيل ما رُوي عن زيد الشحام قال: دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر الباقر عليه السلام فقال: (**يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون، فقال أبو جعفر عليه السلام: بلغني أنك تفسّر القرآن؟ فقال له قتادة: نعم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تفسّره بعلم فأنت أنت، وأنا أسألك**) ـ إلى أن قال أبو جعفر عليه السلام: (**ويحك يا قتادة ! إن كنت إنما فسَّرت القرآن من تلقاء نفسك**

---

١ ـ انظر: دروس في علم الأصول (الحلقة الثالثة)، للسيد الشهيد محمد باقر الصدر ١: ٢٦٩، تحت عنوان: (ظواهر الكتاب الكريم)؛ نشر مؤسسة النشر الإسلامية التابعة لجماعة المدرّسين، الطبعة الخامسة، ١٤١٨هـ، قم.

٢ ـ وسائل الشيعة، للفقيه المحدّث الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي ٢٧: ١٨٥، ح ٢٧، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، قم المقدسة.

فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت قد فسّرته من الرجال، فقد هلكت وأهلكت، ويحك يا قتادة ! إنما يعرف القرآن من خوطب به)[١].

وعن جابر بن يزيد الجعفي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من التفسير فأجابني، ثم سألته عنه ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك كنت أجبتني في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم، فقال:(**يا جابر إنَّ للقرآن بطناً وللبطن بطناً وله ظهر وللظهر ظهر. يا جابر ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إنَّ الآية يكون أولها في شيء وآخرها في شيء، وهو كلام متصل منصرف على وجوه)**[٢].

وجوابه: بعيداً عن إشكاليات السند سوف نتعامل مع المتن على فرض صدوره، أما الرواية الأُولى فقد تعرَّض لها جملة من الأعلام وأفادوا بأنَّ المراد من نفي المعرفة هو المعرفة الكاملة والتامة؛ وأما الرواية الثانية فلنكتة التفسير لا تشمل الأخذ بظاهر اللفظ، فالكلام المراد تفسيره فيه جنبة غموض يُكشف عنها.

قال السيد الخوئي: (إنَّ المراد من هذه الروايات وأمثالها أنَّ فهم القرآن حقَّ فهمه، ومعرفة ظاهره وباطنه، وناسخه ومنسوخه مختص بمن خوطب به، والرواية الأولى صريحة في ذلك، فقد كان السؤال فيها عن معرفة كتاب الله حق معرفته، وتمييز الناسخ من المنسوخ، وكان توبيخ الإمام عليه السلام لأبي حنيفة على دعوى معرفة ذلك.

وأما الرواية الثانية فقد تضمنت لفظ التفسير، وهو بمعنى كشف القناع، فلا يشمل الأخذ بظاهر اللفظ، لأنه غير مستور ليكشف عنه القناع، ويدل على ذلك أيضاً ما تقدم من الروايات الصريحة في أنَّ فهم الكتاب لا يختص

---

١ ـ المصدر السابق ٢٧: ١٨٥، ح ٢٥.

٢ ـ المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقي ٢: ٣٠٠، ح ٥، باب جوامع الكلم، نشر مؤسسة الأعلمي، ١٤٢٩هـ، بيروت.

بالمعصومين عليهم السلام ويدل على ذلك أيضا قوله عليه السلام في المرسلة: (**وما ورثك الله من كتابه حرفاً**)، فإنّ معنى ذلك أنّ الله قد خصّ أوصياء نبيّه صلى الله عليه وآله بإرث الكتاب، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾[1]، فهم المخصوصون بعلم القرآن على واقعه وحقيقته، وليس لغيرهم في ذلك نصيب. هذا هو معنى المرسلة، وإلا فكيف يُعقل أنّ أبا حنيفة لا يعرف شيئاً من كتاب الله حتى مثل قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[2]، وأمثال هذه الآية مما يكون صريحاً في معناه، والأخبار الدالة على الاختصاص المتقدم كثيرة جداً)[3].

ولكن مقتضى الإنصاف أنّ إجابة السيد الخوئي مقبولة في شطرها الأول، أي: نفي المعرفة التامة، دون الثاني، فالصحيح هو أن يُقال بأنّ فهم القرآن لا يمكن أن يكون بعيداً عن العترة الطاهرة، فأصل الفهم ممكن، ولكنه مقرون بمتابعة كلمات أهل البيت عليهم السلام، وقد كان التعنيف والتوبيخ منصبّاً على هذه النكتة، فأبو حنيفة النعمان وقتادة كانا يجتهدان في الإفتاء والتفسير بعيداً عن علوم أهل البيت عليهم السلام.

وأما بالنسبة للرواية الثالثة فإنها تتحدث عن بطون القرآن والوجوه التأويلية فيه، فالآية الواحدة يكون أوّلها في شيء ظاهر، وآخرها في شيء آخر خلاف ذلك الظاهر فيحتاج إلى تأويل وبيان آخر، وهو مع ذلك كله كلام متصل باطنه بظاهره، ومنصرف على وجوه وبطون، وحيث إنّ المُفسِّرين لا يعون هذه الحقيقة، أو أنهم غير قادرين على الوصول لذلك بدون الرجوع إلينا، فإنهم بعيدون عن التفسير الحقيقي للآية.

كما يُمكن توجيه الحديث بكون المراد هو المنع من التفسير بالرأي، وهو

---

١ ـ فاطر: ٣٢.

٢ ـ الإخلاص: ١.

٣ ـ البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ٢٦٨.

قولـه عليه السلام: (**أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن**)، حيـث يُشـير إلـى عملهـم بالظنون العقلية ونتاجهم الشخصي في كلام الله تعالى، والتفسير بالرأي منهيٌّ عنه.

وبعبارة أُخرى: إنَّ التفسير بالرأي عملاً بعقول الرجـال أبعـدُ مـا يكـون عـن التفسير المقبول شرعاً والقائم على أساس مناهج تفسيرية مُعتبرة.

المانع الأول: القصدية والاتجاهية.

فلو قَدِم قارئ القرآن الكريم خالي الذهن إلا من وسائل الفهم الصحيح لأمكنه فهم القرآن، ولكنه يقدم وهو مُعبّأ برؤىً سابقة وقصدية مُتعمَّدة يقدمها بين يديه ويجعلها حاكمة على النصّ، فيكون النصّ بذلك محكوماً له لا حاكماً عليه، فيلتزم بما يُوافق هواه، وهو فهم سقيم.

قال صاحب (التحرير والتنوير) فيمن كان له ميل إلى نزعة أو مذهب أو علة:(يتأول القرآن على وفق رأيه ويصرفه عن المراد ويرغمه على تحمله ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف، فيجر شهادة القرآن لتقرير رأيه ويمنعه عن فهم القرآن حق فهمه ما قيد عقله من التعصب، عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه حتى إن لمع له بارق حق وبدا له معنى يباين مذهبه حمل عليه شيطان التعصب حملة وقال: كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف معتقدك كمن يعتقد من الاستواء على العرش التمكن والاستقرار، فإن خطر له أن معنى قوله تعالى: ﴿**الْقُدُّوسُ**﴾، أنه المنزه عن كل صفات المحدثات حجبه تقليده عن أن يتقرر ذلك في نفسه، ولو تقرر لتوصل فهمه فيه إلى كشف معنى ثان أو ثالث، ولكنه يسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته مذهبه)[1].

وقد وصف الغزالي من حال ميلُه إلى نزعته ومذهبه بينه وبين الفهم بأنه:(شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر ببالـه غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه... وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعاً كمن يعتقد في الاستواء على العرش التمكن والاستقرار، فإن خطر له مثلاً في

---

١ ـ مقدمة التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي ٢: ٣٨. نشر مؤسّسة التاريخ، الطبعة الأولى، طبعة جديدة منقّحة ومصحّحة، ٢٠٠٠م، بيروت.

(**القدوس**) أنه المقدس عن كل ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك في نفسه ولو استقر في نفسه لانجر إلى كشف ثاني وثالث ولتواصل ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده بالباطل وقد يكون حقاً، ويكون أيضاً مانعاً من الفهم والكشف؛ لأنَّ الحق الذي كُلِّف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات، وله مبدأ ظاهر وغور باطن، وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن)[١].

المانع الثاني: الإصرار على اقتراف الذنوب والأُنس بها.

فذلك مانع معنويٌّ كبير من الوصول إلى فهم القرآن الكريم، وهذا ما التفت إليه الغزالي حيث يقول: (أن يكون مصرّاً على ذنب، أو متصفاً بكبر أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع، فإن ذلك سببُ ظلمة القلب وصدئِهِ، وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب، وبه حُجُبَ الأكثرون، وكلما كانت الشهوات أشدّ تراكماً كما كانت معاني الكلام أشدّ احتجاباً، وكلما خفَّ عن القلب أثقالُ الدنيا قرب تجلي المعنى فيه، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة)[٢]؛ وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (إذا عظَّمت أمتي الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف حُرِمُوا بركة الوحي)[٣]؛ وفي ذلك يقول الفضيل بن عياض[٤]: يعني حُرِمُوا فهم القرآن[١].

---

١ ـ إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ١: ٢٨٤، نشر دار المعرفة، بيروت.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للمفسر المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ١: ١٠٤، ح ٢٩٩، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ، بيروت.

٤ ـ الفضيل بن عياض زاهد عابد وأحد رجال الطريقة، روى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وهو ثقة

وقد رُوي عن سفيان بن عيينة أنَّ المراد من الإصراف عن آيات الله تعالى في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ﴾[٢]، هو: أصرف عنهم فهم القرآن[٣].

وقد بيَّن لنا القرآن الكريم علاقة الفهم والتذكير بالإنابة والتوبة، فقال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[٤]، وقال أيضاً: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾[٥].

المانع الثالث: النظرة الجزئية المحدودة للقرآن الكريم والانكفاء على الدوائر الضيقة.

وهذا غالباً ما يقع فيه المتمسّكون بأُسلوب التفسير التجزيئي، فيُوقفون نظرهم العلمي على دوائر ضيِّقة تُستفاد من النصّ، في حين أنَّ القرآن الكريم وحدة

عظيم المنزلة، كان في أول حياته قاطع طريق، عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ «الحديد: ١٦»، فقال: أي رب قد آن، فرجع وأوى إلى خربة فإذا فيها رفقة فقال بعضهم: نرتحل وقال بعضهم: حتى نصبح فإنَّ فضيلاً على الطريق يقطع علينا، فتاب الفضيل وآمنهم فصار من كبار السادات، فقدم الكوفة وسمع الحديث بها، ثمَّ انتقل إلى مكة وجاور بها إلى أن مات في المحرم سنة:(١٨٧ هـ) وقبره بها. ولفضيل كلمات ومواعظ مشهورة. انظر: تاريخ مدينة دمشق، للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر: ٤٨ ص ٣٨٢، دراسة وتحقيق علي شيري، نشر دار الفكر، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ بيروت. وأيضاً: تحف العقول عن آل الرسول، للشيخ الثقة الجليل الأقدم أبي محمد الحسن ابن علي بن شعبة الحرَّاني: ص ٣٧١، الهامش الثالث من تحقيقات الأُستاذ علي أكبر الغفاري، نشر مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرّسين، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ ، قم المقدسة.

١ ـ انظر: إحياء علوم الدين، مصدر سابق ١: ٢٨٤.

٢ ـ الأعراف: ١٤٦.

٣ ـ انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب محمد بن علي بن عطية المكي ١: ٨١ باب:«كتاب ذكر الوصف المكروه من النعت».

٤ ـ ق: ٨.

٥ ـ غافر:١٣.

متكاملة وليس فصولاً مُتباينة أو أبواباً مستقلّة، ولعل خير من أشار إلى محدودية النتاج التفسيري للأُسلوب التجزيئي ومدى خطورته السيد الشهيد الصدر قدس سره في مدرسته القرآنية، حيث يقول: (وحصيلة تفسير تجزيئي للقرآن الكريم كله تساوي على أفضل تقدير مجموعة مدلولات القرآن الكريم ملحوظة بنظرة تجزيئية أيضاً، أي أنه سوف نحصل على أعداد كبيرة من المعارف والمدلولات القرآنية، لكن في حالة تناثر وتراكم عددي دون أن نكتشف أوجه الارتباط، دون أن نكتشف التركيب العضوي لهذه المجاميع من الأفكار، دون أن نحدد في نهاية المطاف نظرية قرآنية لكل مجال من مجالات الحياة فهناك تراكم عددي للمعلومات)[1]، ولأجل ذلك الفهم الناقص والقاصر الذي يخرج به المُفسِّر للقرآن تفسيراً تجزيئياً وقعت فرقة أكبر واختلاف أعمق.

المانع الرابع: الانشغال بالوسائل المُوصلة عن المقاصد المطلوبة.

لا ريب في أهمية إحكام الوسائل الموصلة للأغراض الحقيقية من قراءة النصّ القرآني، ولكنها ستبقى في محطتها الأخيرة مجرد وسائل موصلة وليست غايات مقصودة، فإذا انصبّ الاهتمام على نفس الوسائل على حساب الأهداف والغايات فذلك مانع حقيقي من الوصول إلى فهم القرآن.

---

١ ـ المدرسة القرآنية، القسم الثاني، مصدر سابق: ١٢.

الدرس الخامس: قواعد وأصول فهم القرآن

القاعدة والأصل قد يأتيان بمعنىً واحد، وهو: الأساس، فالقاعدة أساس لبناء شيء، وقواعد البيت أساسه[1]؛ وكذلك الأصل فهو جذر الشيء ومرجعيته، أي هو الأساس التي بُني عليه.

وأما القواعد والأُصول الخاصة بفهم القرآن الكريم، فهنالك مجموعة كبيرة من المقدَّمات والأدوات والتي تُسمِّى بأُصول وقواعد التفسير، وحيث إننا نرى بأنَّ التفسير غير الفهم، وإنما هو مجرد مقدَّمة للفهم الاصطلاحي. وقد تقدَّم أنَّ الفهم هو عملية إجرائية تعتمد على مجموعة مقدَّمات علمية ومعنوية تهدف للوصول إلى المضامين الحقيقية للنصّ القرآني؛ والمراد بالمقدَّمات العلمية جميع الأدوات والقواعد التفسيرية، كما أنَّ المراد بالمقدَّمات المعنوية جميع المقدَّمات والقواعد التأويلية.

من هنا يتعيَّن علينا التعريف بالمقدّمات التفسيرية والتأويلية، وهي كالتالي:

١ ـ الوقوف على اللغة العربية (نحواً وصرفاً وبلاغة).

لابدَّ من إتقان اللغة العربية، وفهم معانيها وطرائق التعبير فيها، وأساليبها البيانية، فإنَّ القرآن نزل باللغة العربية، وقد راعى جميع أساليب العرب في البيان، من تشبيه وضرب الأمثال والتقديم والحذف والإيجاز والإطناب، والتعريف والتنكير لأغراض بيانية من التعظيم والتحقير، وكذلك التوبيخ والاستهزاء، كما في قوله تعالى: ﴿**بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ**﴾[2]، وفي قوله تعالى: ﴿**ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾[3]، حيث لا يُراد التكريم، وإنما السخرية والاحتقار لهم.

---

١ ـ انظر: لسان العرب، مصدر سابق ٣: ٣٦١.

٢ ـ النساء: ١٣٨.

٣ ـ الدخان: ٤٩.

ومن الواضح بأنَّ الأساليب اللغوية لها أثر بالغ في تحديد المراد، ففي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١]، يُوجد فرق كبير جداً عمَّا لو قال: نعبدك ونستعين بك، فالآية لا تُريد التعريف بعبادتنا واستعانتنا بالله تعالى فحسب، وإنما أرادت أن تحصر ذلك به، فلو قال: نعبدك ونستعين بك، فإنه لا يمنع من عبادة سواه والاستعانة بغيره، ولذلك أرادت أن تقول: لا عبادة إلا لله ولا استعانة إلا بالله تعالى، وهذا هو مُقتضى تقديم المفعول به على الفعل والفاعل.

٢ ـ الوقوف على أوليات فهم المفردة القرآنية، من قبيل:

أولاً: معرفة أنَّ لكلٍّ لفظ معناه الخاص به.

ثانياً: مُراعاة هوية المفردة في عصر النصّ.

أي ملاحظة خصوصية ثقافة عصر النزول، ففي قوله تعالى:﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً﴾[٢]، فسَّره البعض بالحركة السريعة المُشيرة إلى حركة الأرض ودورانها[٣]، مستفيداً ذلك قول الفراهيدي: (الكِفات من العَدْو والطَّيَران)[٤]، فظنَّ أنَّ كفات الأرض كذلك، مع أنَّ الفراهيدي أردف ذلك بقوله: (وكفات الأرض: ظهرها للأحياء وبطنها للأموات)[٥]، فيكون المؤدَّى هو كونها وعاءً لضم الأحياء والأموات، أما الأحياء فلأنها مساكن لهم، وأما الأموات فلأنها مقابر لهم.

ثالثاً: التمييز بين المعاني الحقيقية والمجازية.

رابعاً: معرفة أسباب النزول وشأن النزول.

فهنالك فرق دقيق بين سبب النزول وشأنه، فسبب النزول تعبير آخر عن

---

١ ـ الفاتحة: ٥.

٢ ـ المرسلات: ٢٥ .

٣ ـ انظر: كتاب روش برداشت از قرآن (أُسلوب فَهم القرآن)، محمد حسين بهشتي: ٩، نشر منشورات الهادي، ١٩٨١م، طهران.

٤ ـ كتاب العين، مصدر سابق ٥: ٣٤٠ .

٥ ـ المصدر السابق ٥: ٣٤٠ .

الحادثة التي سبقت نزول الآية، وأما شأن النزول فهو الموضوع التي جاءت به الآية، ولتوضيح هذه الفكرة الدقيقة سنمثّل بآية الولاية، وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[1]؛ فإنّ سبب نزولها هو تصدّق أمير المؤمنين علي عليه السلام بخاتمه وهو راكع في صلاته المندوبة، وأما شأن نزولها فهو أعظم من سببها، وهو إثبات الولاية للإمام علي عليه السلام على سائر المؤمنين، فهي كولاية الله وولاية رسوله.

خامساً: معرفة القرينة وأقسامها وأدوارها.

والقرينة في الاصطلاح يُراد بها الأمر المؤدي إلى تحقّق المطلوب، أو الأمر المحقِّق لمراد المتكلم، وأما أقسام القرينة، فهي: القرينة المتصلة، وهي الطرف الملاصق للكلام، غير منفصل عنه، وبه ينعقد الظهور التصديقي للكلام ويتمّ المراد الجدّي؛ وتنقسم القرينة المتصلة إلى لفظية وغير لفظية، وتنحصر القرينة اللفظية بالسياقية فقط، وأما القرينة المتصلة غير اللفظية فتنقسم إلى ما يلي:

١ ـ بيئة النزول، وهي مجموعة الظروف الاجتماعية والتربوية والثقافية والفكرية والسياسية والاقتصادية التي كان عليها عصر نزول القرآن الكريم، وكثيراً ما تُشكِّل هذه الظروف أسباباً حقيقية لنزول النصّ.

٢ ـ أجواء النصّ (القرينة الحالية)، ونعني بها القرائن الحالية الحافة بالنصّ، فالمتكلِّم قد يتكلَّم وهو بصدد التعليم والتفهيم، وقد يتكلَّم وهو بصدد إصدار أوامر، وفي الأمرين معاً نجده يستعمل نفس المفردات، فما لم نقف على القرينة الحالية بالكلام والمتكلِّم والمخاطب لا يُمكننا الفصل بينهما، فلو قال المخدوم لخادمه، وهو بصدد الطلب: اجلب لي ماءً؛ وقال ذلك أيضاً لولده، وهو بصدد تعليمه كيف يُصدر الأوامر، فما لم نقف على القرينة الحالية وهي لحاظ المخاطب

---

١ ـ المائدة: ٥٥.

وموضعه من المتكلِّم لا يُمكننا فهم المراد الجدّي للمتكلِّم.

وتتعلَّق أجواء النصِّ ومناخاته، بأربعة أُمور، هي:

١ ـ ما هي طبيعة المتكلِّم وخصوصياته.

٢ ـ ما هي طبيعة المخاطب وخصوصياته.

٣ ـ ما هي طبيعة الخطاب وخصوصياته.

٤ ـ ما هي طبيعة المعارف البديهية.

وأما القرينة المتصلة اللفظية فتنحصر بالسياق، والسياق لغةً: من السوق، ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً وسياقاً، وهو سائق وسوَّاق، شُدّد للمبالغة[١]. أو من التساوق بمعنى التتابع، فيُقال: قد انساقت وتساوقت الإبل تساوقاً إذا تتابعت، والمساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضاً[٢]، وقد يأتي بمعنى المصير أيضاً، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ**﴾[٣]، أي إلى ربك المصير، وهذه المعاني قريبة من المعنى الاصطلاحي.

السياق اصطلاحاً: السياق بناء تركيبي للنصّ، يرتكز على مفردة أو جملة، وظيفته بيان المراد الجدّي للمتكلّم من خلال استعماله لمفردات وتراكيب بنحوٍ لا تُفضي إلى غير مفاد السياق، ولذلك فإنَّ السياق ليس له حقيقة خارجية وراء البناء التركيبي، بمعنى أنه ليس مُفردة بعينها، كما توهَّم البعض، وأيضاً ليس جملة، وإنما هو بناء صوري نقرأوه من خلال النصّ بوجوده التركيبي.

والدلالة السياقية على ثلاثة أقسام، اقتضاء وتنبيه وإشارة، ودلالة الاقتضاء أمر مقصود للمتكلِّم، وهذا القصد يكفي فيه الفهم العرفي، ويُشترط فيها توقّف صدق

---

١ ـ لسان العرب، مصدر سابق ١٠: ١٦٦.

٢ ـ المصدر السابق ١٠: ١٦٦.

٣ ـ القيامة: ٣٠.

الكلام وتماميته عليها؛ وأما دلالة التنبيه أو دلالة الإيْمَاء[١]، فيُراد بها تنبيه المُخاطب إلى أمر معهود بينه وبين المتكلّم، كما لو كان وقت شرب دواء المريض هو التاسعة مساءً، فتقول له عند مجيء ذلك الوقت: دقَّت الساعة التاسعة.

فهنا لا يُراد الإعلام بنفس الوقت بما هو هو، وإنما المراد التنبيه إلى ما يستلزمه ذلك الوقت، وهذه الدلالة لا يتوقّف صدق الكلام عليها، ففي المثال السابق تكون القضية صادقة، سواء شرب المريض الدواء أو لم يشرب؛ ومن أمثلتها القرآنية قوله تعالى: ﴿**فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً**﴾[٢]، ففي حرمة التأفّف تنبيه إلى حرمة ما هو أعظم من التأفّف.

وأما دلالة الإشارة، فإنَّها مقصودة للمُتكلِّم، ومن أمثلتها الإشارة إلى أقلّ مدّة الحمل المُستفادة من قوله تعالى: ﴿**وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ**﴾[٤]، فإنه بطرح الحولين (أربع وعشرين شهراً) من ثلاثين شهراً يكون الباقي:(ستة أشهر)، وهو أقلُّ مدة للحمل، وقد كان أول من استظهر هذه الإشارة القرآنية لأقلّ مدّة للحمل هو الإمام علي عليه السلام في حادثة مشهورة تكرَّرت معه أكثر من مرّة.

وأما القرينة المنفصلة، وهي الطرف غير الملتصق بالكلام، ولكنه لاحق به، فإنها تنقسم إلى:

١ ـ القرائن النقلية (الآيات والروايات).

٢ ـ القرائن العقلية القطعية (المعارف العقلية النظرية البرهانية).

٣ ـ الإجماع والضرورات الدينية.

---

١ ـ الإيماء ـ بكسر الهمزة ـ لغةً: إشارة باليد أو بالرأس ونحو ذلك، وقد سُميَّت بذلك؛ لأنها تُشير إلى معنىً آخر غير مذكور في جملة المُتكلِّم.

٢ ـ الإسراء: ٢٣.

٣ ـ الأحقاف: ١٥.

٤ ـ البقرة: ٢٣٣.

الدرس السادس: القواعد الأخرى التي لابد من معرفتها

ومن القواعد الأُخرى التي لابد من معرفتها تفصيلاً:

١ ـ معرفة المحكم والمتشابه، ومعرفة الظاهر والباطن.

٢ ـ معرفة الناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني.

٣ ـ معرفة قواعد الجمع العرفي وضوابطها (العام والخاص، والمطلق والمقيَّد، والحاكم والمحكوم).

٤ ـ معرفة المكي من المدني في السور والآيات، فلذلك صلة وثيقة بالناسخ والمنسوخ، فإنَّ من شروط الناسخ هو التأخّر زماناً على المنسوخ، ومن هنا تتبيَّن أهمية المكي والمدني، فالمكي لا يُمكن بأيِّ حال من الأحوال أن يكون ناسخاً للمدني، لتقدّمه زماناً عليه، وشرط الناسخ التأخّر.

٥ ـ الوقوف على المناهج والأساليب التفسيرية، للخروج من طائلة الاتجاهات التفسيرية.

٦ ـ الوقوف على السيرة النبوية والتأريخية للإسلام، فهنالك نصوص قرآنية يعسر تصور المراد منها بدون التزود بالخلفيات التأريخية، من قبيل قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ**﴾[1]، حيث يتعذر علينا الوصول إلى المعنى الدقيق لكلمة (النَّسِيء)، وسرّ كونه زيادة في الكفر، وهنا يُسعفنا التأريخ من خلال تسليطه الضوء على الواقع الذي كان عليه عرب الجاهلية في تعاطيهم مع الأشهر الحرم (رجب، ذي القعدة، ذي الحجة، المحرَّم)، بنحو العدد لا المصداق، حيث يلتزمون بأربعة أشهر مختلفة، منها من أشهر الحرم، ومنها من أشهر الحلّ،

---

١ ـ التوبة: ٣٧.

فيُعوّضون ما فاتهم من الأشهر الحرم بأشهر الحلّ، أي: يقترضون شهراً ثمَّ يفون ذلك بشهر آخر عوضاً عنه، وهذا هو النسيء، ولكونهم في الأصل كفّاراً فإنَّ التبديل بأشهر الله الحُرم يكون زيادة في الكفر.

٧ ـ الطهارة والإيمان، فهما سُلَّمان معرفيان لفهم القرآن، فمن الواضح بأنَّ هنالك سُبلاً للسالك والمُريد يتوسَّل بها لنيل مقاصده الكمالية، وهي ما تُسمَّى بمسالك السالكين، وهي على اختلاف مراتبها تدور حول محور الطهارة بمراتبها الثلاثة، وهي:

الأول: طهارة البدن ببعدها الظاهري.

الثاني: طهارة القلب من وجود الأغيار، وذلك بقطع وشائجها والولاء لها، وهو البعد الباطني الأول، الذي يُمثل السقف الأول من التوحيد.

الثالث: طهارة القلب من أصل التفكّر بالأغيار، وذلك بالحضور الدائم في ساحة قُدسه، حيث تبطل حكاية كل موجود عن نفسه، وتنحصر حكايتهم عنه سبحانه، وهو مقام: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[1]، فلا يرى شيئاً غير الله تعالى، كما هو عليه حال إمام المُوحدين علي عليه السلام حيث يقول: (ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله وبعده ومعه)[2]، وهو المقام الأرفع في التوحيد بمراتبه الثلاث، الذاتي والصفاتي والأفعالي، الذي لا يناله إلا من أوصد أبواب حاكمية عالم المادة مُطلقاً.

جدير بالذكر إنَّ الطهارتين الأُولى والثانية ليستا مقاماً معنوياً فحسب، وإنما هما مقامان معرفيان حقيقيان، وإذا كانا كذلك فإنه يتضح لنا مدخليتهما في فهم النصّ القرآني، ولذلك ينبغي التأكيد كثيراً على أنَّ شخصية قارئ النصّ لابدَّ أن

---

١ ـ البقرة: ١١٥.

٢ ـ مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، مصدر سابق: ٢٢.

تتصف بالطهارة المعنوية ذات الأثر المعرفي، ولو على القدر المُتيقَّن من الطهارة الثانية، أعني: طهارة القلب من وجود الأغيار، فذلك أمر يختصر عليه الطريق، ويفتح أمامه نوافذ جمّة لأسرار القرآن الكريم، وهي النافذة الحقَّة للكون.

وينبغي أن يُعلم بأنَّ مُعظم العلوم الكسبية تُشكّل حلقة مهمة في بناء شخصية المُفسّر للقرآن الكريم، فكلما اتسعت دائرته المعرفية سيكون أقرب إلى معاني النصّ وأهدافه القريبة، ولكنه طريق لا يخرج عن كونه يُري الطريق لصاحبه دون أن يضمن له التحقُّق بالمعارف القرآنية، وبالتالي فهذه المعرفة البرهانية الصورية لا تمنحه فرصة الارتقاء الحقيقي، فإنَّ الصور الذهنية تقتضي التحرّك باتجاهها خارجاً ولكنها لا تُوجب ذلك، وبالتالي فإنَّ الهدف الغائي سيكون بمنأى عنه.

بعبارة أُخرى: إنَّ جميع العلوم الكسبية التي يحتاجها المُفسِّر تبقى أسيرةَ نفسها، ممَّا يعني أنَّ المستويات العُليا لفهم النصّ القرآني سوف تبقى بعيدة المنال عن المُتوسّل بالعلوم الكسبية، وقد ورد في بعض النصوص الروائية عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: (**ليس العلم بكثرة التعلم، وإنما هو نور يقذفه الله تعالى في قلب من يريد الله أن يهديه**)[١]، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: (**علم الباطن سرّ من أسرار الله عزَّ وجل، وحكم من حكم الله، يقذفه في قلوب من شاء من عباده**)[٢].

وها هنا حقيقتان، الأولى: تنصّ على أنَّ هنالك علماً باطنياً في قبال الظاهر، والظاهر هو الكسبي، والباطن هو الحضوري واللّدنّي؛ والثانية: ترى بأنَّ هذا العلم الحضوري واللّدنّي سرّ من أسرار الله ونور من أنواره، يقذفه في قلب من يشاء.

---

١ ـ منية المريد، للشيخ زين الدين بن علي العاملي (الشهيد الثاني): ١٦٧، تحقيق رضا المُختاري، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأُولى،١٤٠٩هـ، قم المقدسة.

٢ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقّي بن حسام الدين الهندي ١٠: ١٥٩، ح ٢٨٨٢٠، نشر مؤسّسة الرسالة، ١٣٩٩هـ.

وعليه فلابدَّ من السير باتجاه تحصيل هذا العلم النوري، الذي من صفاته الأُولى والمهمة جداً هو أنه علم تحقُّقي لا تحقيقي، ولذلك عبّر الحديث عنه بأنه نور يُقذف في القلب، ومن الواضح بأنَّ القلب ليس محلاً للعلوم الحصولية.

وعلى أيِّة حال، فإنَّ فهم القرآن الكريم في بعديه التفسيري والتأويلي يتوقف كثيراً على معطيات العلم النوري، بل إنَّ معظم الأسرار القرآنية لا تُنال إلا بالمُعطى النوري.

علاقة قواعد فهم القرآن بمراتب فهمه:

لا ريب في وجود أصل العلاقة، فإنَّ المستوى المعرفي لقارئ القرآن يُحدِّد له مرتبته في مقام فهم القرآن، وهذه المرتبة ليست مرتبة النصّ نفسه، وإنما هي ـ كما قلنا ـ مرتبة القارئ.

وعليه فكل من توفَّر على أكبر قدر ممكن من القواعد يكون هو الأقرب لأفضل المراتب، شرط أن يكون مستوعباً لتلك القواعد، وقادراً على الاستفادة منها، ولا ريب بأنَّ الجوانب المعنوية هي الأكثر تأثيراً في الوصول إلى أشرف المراتب المعرفية في فهم القرآن الكريم.

مدى انطباق قواعد الفهم على تفسير القرآن وتأويله:

إنَّ التأويل لا ينفكّ عن التفسير البتة، كما أنَّ الباطن لا ينفكّ عن الظاهر، فمن أخطأ في الظاهر لا طريق له للباطن البتة، فالظاهر أشبه بالشريعة، كما أنَّ الباطن أشبه بالطريقة والحقيقة، ولا طريقة أو حقيقة بدون شريعة.

من هنا يلزم على كلٍّ من يريد الدخول في مضمار التأويل أن يكون متوفِّراً على مجموع القواعد التفسيرية للقرآن الكريم؛ علماً بأننا لم نتعرَّض للقواعد التفسيرية فحسب، وإنّما أشرنا إلى أهم القواعد أو لنقل شروط التأويل والوصول إلى الباطن القرآني، وقد أسمينا ذلك كلِّه بالطهارة المعنوية، وبالعلم النوري اللّدنّي؛ وقد كان

الجامع المُشترك لذلك كله هو عنوان قواعد وأُصول فهم القرآن، وقد اتضح أنَّ دائرة الفهم أوسع من دائرة التفسير بكثير.

المصنفات التفسيرية وقواعد فهم القرآن الكريم.

بحسب التتبع وجدنا أنَّ الكثير من المصنَّفات التفسيرية لم ترعَ قواعد وأُصول التفسير فضلاً عن قواعد الفهم؛ ولذلك فإنَّ الكثير منها إنما يدخل في المصنفات التفسيرية من باب المسامحة.

نعم، الكثير منها يُمثل مرتبة محدودة من مراتب الفهم، والغالب عليها والسواد الأعظم منها لا يعدو المراتب المتدنّية من مراتب الفهم، أو تكاد أن تقتربَ من المراتب المتوسطة للفهم، ولكنها بمنأى عن المراتب العليا؛ بل يُمكن القول بأنَّ جميع المصنَّفات التفسيرية بلا استثناء لم تُوفَّق للوصول إلى المراتب العُليا للفهم القائم على محصلة المزج المعرفي بين النتاجين التفسيري والتأويلي للنصّ القرآني.

الدرس السابع: علاقة المناهج والأساليب التفسيرية بقواعد فهم القرآن

وهنا ينبغي أولاً التعريف بالمناهج والأساليب التفسيرية ثم التعرّض لوجه علاقتهما بالفهم.

المنهج لغةً: هو الطريق الواضح[1]، واصطلاحاً هو طريقة الاستدلال أو الكيفية المعتمدة في الاستدلال على إثبات المطلوب، ولتقريب ذلك يُمكن القول بأنّ من يعتمد الأدلّة العقلية في إثبات المطلوب فإنّ منهجه عقلي، كما هو الحال في فلسفة المشّاء، وهكذا من يعتمد الأدلّة النقلية فمنهجه نقلي، ومن يعتمد التجربة فمنهجه تجريبي، وهكذا.

وصاحب المنهج المُعتبر إنما يقيم الدليل لإثبات مدّعاه، ومع غياب الدليل يكون غياب المنهج، وبالتالي فإنّ المنهج يُراد به الدليلية بنحو ما، فكما أنّ الدليل هو الطريق الواضح لإثبات المدّعى فكذلك المنهج؛ وبذلك نخرج بنتيجة مفادها أنّ المنهج هو مجموعة القواعد أو الضوابط المُفضية إلى نتائج حتمية لها عند عدم وقوع الخطأ في استعمالها؛ كما أنّ موقعية المنهج في العملية الاستدلالية عموماً وفي العملية التفسيرية خصوصاً يكشف النقاب لنا عن الفُوضى البحثية التي وقع فيها عدد كبير من أعلام المسلمين في مصنّفاتهم المختلفة وفي مختلف المجالات.

فإذا غاب المنهج المعتبر ومورست العملية التفسيرية أو التأويلية للوصول إلى فهم القرآن فذلك ما يندرج ضمن الاتجاهات القائمة على القصدية والقبليات الحاكمة على معطيات النصّ المقروء.

جدير بالذكر إنّنا إذا ما استقرأنا المصنّفات التفسيرية، وقرأناها بدقّة

---

١ ـ انظر: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: ٢٩٨، تحقيق ونشر مؤسسّة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، قم المقدسة.

وتمحيص، فإنّ القليل منها سيخرج عن دائرة الاتّجاهات وبنسب مختلفة.

ولا يخفى بأنَّ تجريد النفس عن المتبنّيات العقدية والاجتماعية والفكرية والسياسية في رتبة سابقة على العملية التفسيرية أمر صعب وشاقّ جداً، إن لم يكن عسيراً، لاسيّما مع حصول حالة انغلاق معرفي على المتبنّيات الفردية وعدم تقبّل القراءات المقابلة جملةً وتفصيلاً.

علماً بأنَّ تحديد المناهج في معظم التفاسير المتوفَّرة لدينا هو تحديد بعد الوقوع[1]، قد سجّله مصنّفو أبحاث مناهج التفسير والمهتمّون بذلك، ولم يُعلم تحقيقاً أنّ أولئك الأعاظم قد قصدوا منهجاً معيّناً دون آخر.

وعلى أيّة حال، فانّ كلّ حركة تفسيرية لم تنطلق في ضوء منهج معتبر فإنّها سوف تُمثّل اتّجاهاً معيّناً تشكّل مردوداته السلبية الثقل الأكبر في ردم البناء المعرفي في العملية التفسيرية.

أمّا مناهج التفسير المعتبرة، فهي:

١ ـ منهج تفسير القرآن بالقرآن.

٢ـ منهج التفسير الروائي الأثري.

٣ ـ منهج التفسير العقلي الاجتهادي.

٤ ـ منهج التفسير العلمي التجريبي.

٥ ـ منهج التفسير الإشاري .

٦ ـ المنهج التفسيري الجامع.

وأخيراً هنالك ما يُسمَّى بمنهج التفسير بالرأي، إلا أنه ليس منهجاً وإنما هو محض الاتجاه الفاقد للدليلية عليه وعلى معطياته؛ فهذا الاتجاه التفسيري اللامنهجي منهيٌّ عنه بشكل صريح في حديث قدسي وفي السنة الشريف،

---

١ ـ نعم، يُستثنى من ذلك السيد الطباطبائي الذي صرَّح بمنهجه التفسيري في مقدَّمة الجزء الأول وضمن الجزء الثالث من الميزان.

وبالضمن في القرآن الكريم، أمّا النهي الضمني فبقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾[١]، والعلم يُفسّر في المقام بالدليل، وقد جاء بالضمن في قوله تعالى: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ**﴾[٢].

وأمّا ما جاء صريحاً في حديث قدسي فهو ما رُوي عن أمير المؤمنين عليعليه السلام، قال: (قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: **قال الله جلّ جلاله: ما آمن بي من فسّر كلامي برأيه**)[٣]، وأمّا ما جاء في السنة الشريفة فقد رُوي عن أمير المؤمنين عليعليه السلام إنه قال لمُدّعي وقوع التناقض في القرآن:(**إياك أن تُفسّر القرآن برأيك حتى تفقهه عن العلماء**)[٤]، وعن الإمام الحسينعليه السلام، أنه قال:(**سمعت جدّي رسول اللهصلى الله عليه وآله يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**)[٥].

الأساليب التفسيرية

وأما الأسلوب التفسير فيُراد به طريقة عرض النتائج المُستدل عليها بواسطة المناهج التفسيرية، فالنتائج تارة يُلحظ فيها الجانب اللغوي فقط، وأُخرى يُلحظ فيها الترتيبية وأُخرى الموضوعية، فهنالك أساليب ثلاثة معرفة في العملية التفسيرية، وهي:

أولاً: أُسلوب التفسير المفرداتي.

ثانياً: أُسلوب التفسير الترتيبي التجزيئي الجُملي.

ثالثاً: أُسلوب التفسير الموضوعي التوحيدي.

---

١ ـ الإسراء: ٣٦.

٢ ـ النجم: ٢٣.

٣ ـ التوحيد، للشيخ الأقدم الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي: ٦٨، تحقيق السيد هاشم الحسيني الطهراني، نشر جماعة المدرّسين، الطبعة ١٣٨٧هـ، قم المقدسة.

٤ ـ المصدر السابق: ٢٦٤.

٥ ـ المصدر السابق: ٩٠، ح ٥.

والمفرداتي يقف على معاني المفردات فقط، كما هو الحال في تفسير مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني؛ وأما الترتيبي فيُراد به تناول الآيات بحسب ما هو موجود في النظم القرآني، وقد سمِّي بالتجزيئي أيضاً لأنه يُجزِّئ السور والآيات، أي أنه يُفسِّر الجمل التامة في السورة الواحدة وفي الآية الواحدة أيضاً دون أن يلحظ فيما بينها من جهة ارتباط .

وأما الأُسلوب الموضوعي فيعتمد على اختيار موضوع في رتبة سابقة على التفسير ثم يُعرض بصيغة سؤال على القرآن برمّته، ثم تُجمع الآيات ذات الصلة بالموضوع وتُفسِّر تفسيراً تجزيئياً ثم تجمع النتائج للوصل إلى النتيجة النهائية، والتي تُعبر عن الموقف القرآني وليس الموقف الآياتي.

وقد سُمِّي التفسير الموضوعي بالتوحيدي لأنه يُوحِّد بين الآيات ذات الموضوع الواحد، وربما سُمِّي بذلك لأنه يُوحِّد بين التجربة الإنسانية المطروحة على شكل سؤال وبين المعطى الجواب القرآني الذي يُمثل الموقف النهائي للقرآن، والذي يُمكن التعبير عنه بالنظرية القرآنية.

إذن فالوظيفة الأساسية للتفسير التجزيئي تكمن في إبراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية دون إعطاء الموقف القرآني العام الذي يتشكّل عادة من مجموعة مداليل تفصيلية، بخلاف ما عليه التفسير الموضوعي فإنّه لا يكتفي بإبراز المضامين الجزئية للمفردات القرآنية وإنّما يتجاوّز ذلك إلى ما هو أهمّ وأجدى، حيث يقوم بتحديد الموقف القرآني تجاه موضوع من موضوعاته المختلفة[1].

فتخلّص لدينا أنّ الأساليب التفسيرية هي غير المناهج التفسيرية الآنفة الذكر، ولكن دون أن تنفكّ عنها؛ بمعنى: أنّ المنهج التفسيري أيّاً كانت هويته لابدّ أن يكون له أُسلوب معين في الوصول إلى مراد النصّ القرآني، وبذلك يُصار إلى أحد الأساليب المتقدّمة (المفرداتي، الموضوعي، والتجزيئي).

---

١ ـ انظر: المدرسة القرآنية، مصدر سابق: ٣٤ ـ ٣٥.

بعد هذه المقدّمة المهمة يتضح لنا وجه العلاقة بين المناهج والأساليب التفسيرية وبين فهم القرآن، فلا يُمكن لنا الوصول إلى أيّة مرتبة من مراتب فهم القرآن دون التوسّل بالمناهج والأساليب التفسيرية.

مدى اكتمال قواعد فهم القرآن على مستوى النظرية والتطبيق

أما على مستوى النظرية فلا زالت هنالك مساحات فارغة لم تُملأ في بيانات المناهج والأساليب التفسيرية، إلا أنَّ ما هو موجود بين أيدينا من مصنّفات تفي بالحاجات الأولية لمن يُريد تحصيل بعض مراتب الفهم؛ وأما على مستوى التطبيق فهنالك تخبّط كبير جداً، لاسيَّما في المصنَّفات القديمة، والكثير من المصنّفات المتأخّرة، ولكنّنا على مستوى البحوث والدراسات فالحال لأنها كُتبت بعد نضج العملية التفسيرية وبيان أهم الملامح للمناهج والأساليب التفسيرية.

الدرس الثامن: مصادر ومنابع فهم القرآن الكريم

ونعني بمصادر فهم القرآن ومنابعه خصوص الأدلة والمدارك المعتمدة في بيان المراد من النصّ القرآني المقروء قراءة تخصّصية، أو هي المادة الأولية لفهم النصّ، وهي كالتالي:

المصدر الأول: القرآن الكريم

إنّ الحاجة للقرآن في فهمه معلومة ومعمول بها، بل يُعدّ ذلك من أفصل المصادر المعتمدة؛ وهو ما يُسمَّى بمنهج تفسير القرآن بالقرآن؛ ولعلَّ من أشهر بياناته الآيات المُحكمات التي تُقابلها الآيات المُتشابهات الحمالة وجوه، ولذلك فهي بحاجة إلى بيان المُحكمات، وهو قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾[1]؛ حيث جرت القاعدة في عود المتشابه للمحكم في فهمه والعمل به.

المصدر الثاني: الروايات

وهو ما صحّ لفظه أو معناه عن النبي الأكرمﷺ وأهل بيتهعليهم السلام، سواء ما ورد في كتبنا الحديثية الأساسية والفرعية، أم ما ورد منها في صحاح مدرسة الخلفاء، وربما يُقال بأنَّ للروايات دورين مهمين، الأول لابدَّ منه، وهو الدور التطبيقي، والآخر تفسيري تعليقي، وذلك عند غياب المُبيِّن القرآني، وأنَّ لهذا الدور التفسيري التبييني وجه قرآني، وهو قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا**

---

١ ـ آل عمران: ٧.

﴿نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١]، ولكنه دور تعليقي في صورة كون التبيين نبوياً خالصاً.

هكذا يرى جملة من أعلام التفسير، منهم السيد العلامة الطباطبائي وبتبعه أُستاذنا العلامة الحيدري، إلا أنَّ ذلك ليس صحيحاً، فالمنهج الروائي على حدٍّ سواء مع منهج تفسير القرآن بالقرآن، وليس مجرد أمر تطبيقي، حيث جريان نظرية الجري والتطبيق على النصوص الروائية المُفسِّرة للقرآن؛ وما قيل بأنَّ التفسير يتعاطى مع المفاهيم القرآنية، وأنَّ الروايات قد اقتصرت على الجوانب التطبيقية والمصداقية فلا تكون مُفسِّرة، فإنه قول مقبول في كبراه التي تقرن التفسير بالمفاهيم، ومرفوض في صغراه التي تنفي صفة المعالجات المفهومية عن الروايات؛ فذلك مناف لمقتضى التحقيق؛ فإنَّ الروايات منها ما جاءت لتحدِّد مصداقاً، ومنها ما جاءت لتشرح مفهوماً؛ ولعلنا نتعرَّض لذلك في دراسة مستقلة.

نعم، ينبغي الالتفات إلى الروايات الإسرائيلية[٢]، وهي صفة أُطلقت للتغليب، وذلك لأنَّ المعروف عن اليهود هو الدسّ والتزييف، وإلا فإنَّ هنالك وضَّاع حديث معروفين أُوسمت رواياتهم بالإسرائيليات أيضاً، قال أُستاذنا المُحقِّق معرفة: (التغليب للون اليهودي على غيره، لأنَّ غالب ما يُروى من هذه الخرافات والأباطيل مرجع في أصله إلى مصدر يهودي)[٣].

علماً بأنَّ صفة الإسرائيلية لا تصلح مناطاً لرفض الرواية، فللقبول والرفض مناطات أُخرى، منها: ما خالف منها القرآن أو السنة الصحيحة أو الضرورات الدينية أو البراهين العقلية يضرب بها عرض الجدار، وهذا ضابط عام تُقاس به الروايات الإسرائيلية وغيرها.

---

١ ـ النحل: ٤٤.

٢ ـ مرَّ بنا في هامش سابق معنى الإسرائيليات.

٣ ـ انظر: التفسير والمُفسِّرون في ثوبه القشيب، مصدر سابق ٢: ٨٠.

المصدر الثالث: القرائن العقلية

فمن جملة أدوات الفهم الصحيح للنصّ القرآني تكمن في الوقوف على القرائن العقلية؛ ولعلَّ الكثير من السقطات التفسيرية كان منشأها عدم مُراعاة القرائن العقلية القطعية، كما هو الحال في تصوير الصفات الإلهية التي عُبِّر عنها قرآنياً بأُمور حسِّية، كاليد والوجه والعين، حيث نجد ذلك الركام الهائل من التشبيه المُفضي للشرك والكفر، وبالتالي فإنَّ الالتفات إلى القرائن العقلية يُشكّل عميلة وقائية لحفظ العملية التفسيرية من السقطات والتزييف، بل هي عملية وقائية تقي عقيدة المُفسّر والمُتابع له من الانحراف وتُجنّبهما من الضلال.

المصدر الرابع: جملة من علوم القرآن

من قبيل الناسخ والمنسوخ والمكي والمدني، وأسباب النزول، وغير ذلك.

المصدر الخامس: المعاجم اللغوية الموثوقة

المصدر السادس: العلوم الإنسانية

وأهمّها بالمعنى الأخصّ: الفلسفة والعرفان وعلم النفس والتأريخ والاجتماع والسياسة والقانون والإدارة والآثار والفنّ وبعض فروع الاقتصاد، وقد تُطلق العلوم الإنسانية ويُراد منها المعنى الأعمّ فتدخل علوم اللغة والأدب والطبّ، وغير ذلك ممَّا تتعلَّق بإبداع الإنسان وخلَّاقيته؛ ولا يخفى مدخلية جملة من العلوم الآنفة في فهم القرآن الكريم.

المصدر السابع: التجارب العلمية

حيث تكون الحاجة إليها في بيان الآيات ذات الإعجاز العلمي، فضلاً عن الحاجة إليها لمن نهج المنهج العلمي في التفسير.

المصدر الثامن: القدرات الذاتية والمُكتسبة

ونعني بالقدرات الذاتية الخاصة بشخصية قارئ النصّ؛ أما القدرات الذاتية

فهي: (الفطنة والذكاء؛ والموهبة الخلاَّقة، فـإنَّ المُفسِّـر يحتـاج إلـى مسـتوى مـن الموهبة والخلَّاقية يفوق ما يحتاجه أرباب الأدب والفنّ[1]؛ وأيضـاً سـرعة البديهـة وقوّة الاستيعاب؛ وقوَّة التصوّر والتخيل معاً، وذلك لأنَّ القرآن على مراتـب، وهـذه المراتب لا يُمكن تقصّـيها بـدون هـاتين القـوّتين؛ وحـبّ الحقيقـة والرغبـة فـي التحصيل والتحقيق، ففي ذلك ضمانة بقاء الدافعية المستمرة، وضمانة الخروج مـن الأمَّعية والتقليد الأعمى؛ ومنها: الإخلاص والنقاء والطهارة، فذلك ركيزة أساسية في تقصّي الوجوه التأويلية.

وأما القدرات المكتسبة فمنها: المرتبة العلمية التي انتهى إليها المُفسّر، فجـامع المنقول والمعقول عادة ما يفوق نتاجه التفسيري فاقد أحـدهما، وجـامع المنقـول يفوق من توفّر على فنٍّ واحد من الفنون النقلية.

ومنها: المطالعة التأملية والمتابعة التحقيقية، فإنَّ معظم الأخطاء ناتجة عن قلّـة المطالعة وضعف التأمل وندرة المتابعة التحقيق.

ومنها أيضاً: الدقة وعمـق التحليـل، فـذلك مـا يُقرّبـه مـن الأهـداف البعيـدة والقصوى من النصّ.

---

١ ـ ومن هنا ينبغي التشديد في قبول الطلبة في مجالات علوم القرآن الكريم، ومُراعاة مـا يمتلكونـه مـن قدرات ذاتية وكسبية، لكيلا تكون هذه الأقسام العُليا في معارفها مسرحاً للفاشلين العـاطلين، ومـوئلاً للمتطفلين.

الدرس التاسع: نكات مهمة مع بيان وظيفتنا تجاه القرآن الكريم

الفرق بين مناهج التفسير ومصادره

هنالك خلط وقع في بيان مناهج التفسير ومصادر التفسير، حيث ظنّ البعض أنهما واحد، ومن ثم لا معنى للفصل بينهما؛ من قبيل القرآن الكريم والروايات ومجموعة القرائن؛ ولكنّ الصحيح في المقام هو اختلاف الجهة المنظور إليها، فإنّ المنهج التفسيري طريق مُوصل للمراد من النصّ القرآني، وأما المصدر التفسيري فإنه مادة أولية لفهم النصّ، ولا مانع من كون الشيء الواحد طريقاً للوصول ومادة أولية يعتمدها قارئ النصّ.

الفرق بين مصادر التفسير وبين المصادر التفسيرية

كما أنّ هنالك فرقاً كبيراً بين مصادر التفسير والتي يُراد بها ما تقدَّم آنفاً، من القرآن والرواية والقرائن العقلية وجملة من علوم القرآن، وغير ذلك، وبين المصادر التفسيرية؛ فإنّ المصادر التفسيرية يراد بها المُصنَّفات التفسيرية لا غير؛ فالقرآن الكريم مصدر تفسيري، وأما كتاب مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي فإنه من المصادر التفسيرية بمعنى أنه من المصنَّفات، وقد يُطلق أحياناً عنوان المصادر التفسيرية ويُراد بها مصادر التفسير من باب التوسعة، وإلا فالمصادر التفسيرية هي المصنَّفات المُؤلَّفة، وأما مصادر التفسير فإنها المواد الأولية التي يعتمدها قارئ النصّ في فهم القرآن.

اختلاف التعاطي مع مصادر ومنابع فهم القرآن

لا ريب في وجود اختلاف في التعاطي مع مصادر الفهم وفي أكثر من جهة، فهنالك جهة اختلاف تعود إلى نفس المنبع في معطياته، فالقرآن مثلاً لا توجد فيه مشكلات سندية، وهذا ما يوفّر على المفسِّر جهوداً كثيرة كما أن يجعله مطمئناً

أكثر لنتاجه التفسيري المعتمد على القرآن نفسه.

وهنالك جهة اختلاف أُخرى غالباً ما يعود إلى شخصية المُفسِّر ومنظومته الفكرية وسعته المعرفية، فالأخباري مثلاً لا يأنس إلا بالرواية التفسيرية، والفيلسوف المشائي إذا ما أراد أن يكون مفسِّراً تجده باحثاً عن القرائن العقلية، والأخلاقي تجده باحثاً عن المنابع الأخلاقية في التفسير، وهكذا.

يُمكن أن نحدّد وظائفنا تجاه القرآن الكريم في أكثر من زاوية، وهي:

الزاوية الأُولى: الجانب النظري، وهو المتعلِّق بفهم القرآن، فالواجب على كل مسلم أن يسعى لفهم القرآن، ولو بقدر ما يحتاجه وبما يناسب قدراته المعرفية.

الزاوية الثانية: الجانب العملي الشخصي، وهو المتعلِّق بتطبيق ما حصلنا عليه في الجانب النظري على سلوكنا، فنكون قرآنيين عملاً لا نظراً فقط .

الزاوية الثالثة: الجانب العملي التعليمي، ونعني به العمل على إيصال ما تعلّمناه إلى الآخرين، والعمل على نشر المعارف القرآنية.

الزاوية الرابعة: تعاهد القرآن الكريم، وذلك من خلال الحرص على تلاوة القرآن يومياً، والسعي لحفظه بقدر المستطاع.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

كلمة الدار: ٧
مقدّمة المؤلف: ٩

الفصل الأول: أبحاث حول القرآن

أولا: أبحاث حول القرآن ١٣
الدرس الأول: هوية القرآن ومكانته في المنظومة الإسلامية ١٣
أسئلة الحاضرين: ١٦
الدرس الثاني: موارد مرجعية القرآن في العلوم الإسلامية والإنسانية..... ١٨
أسئلة الحاضرين: ٢١
الدرس الثالث: نزول القرآن ٢٣
مفردة النزول: ٢٣
طبيعة النزول: ٢٤
هدف التنوّع من النزول: ٢٤
وقفة تأمّل: ٢٥
بداية النزول: ٢٧
أول آي من القرآن: ٢٩
اختيار اللغة العربية: ٢٩
الهدف من نزول القرآن: ٣٠
الأهداف الجزئية أو الصغرى من النزول: ٣١
الأهداف الكلية أو الكُبرى من النزول: ٣٢
أسئلة الحضور ٣٣
الدرس الرابع: تأليف القرآن وتدوينه ٣٥
رواية في جمع أبي بكر للقرآن: ٣٦
رواية جمع القرآن في عهد أبي بكر على يد الإمام علي عليه السلام: ٣٦
رواية في جمع عمر للقرآن: ٣٦
رواية في جمع عثمان للقرآن: ٣٧
جمع القرآن في عهد رسول الله تحليلياً: ٣٨

جمع القرآن على عهد رسول الله روائياً:..... ٤١
الجمع بين القول الأول والثاني:..... ٤٣
الجمع بين القول الثاني والثالث..... ٤٣
أسئلة الحاضرين:..... ٤٤
الدرس الخامس: حقيقة المكي والمدني وآثارهما ٤٥
ثمرة البحث في المكي والمدني:..... ٤٦
كيفية التعرّف على المكي والمدني:..... ٤٦
الدرس السادس: أسباب النزول وشأن النزول..... ٤٨
تعدّد أسباب النزول:..... ٤٩
الفرق بين سبب النزول وشأن النزول:..... ٤٩
أسئلة الحاضرين:..... ٥٠

الفصل الثاني: أبحاث في القرآن

ثانيا: أبحاث في القرآن.....٥٥
الدرس السابع: الوحي هو المصدر الوحيد للقرآن الكريم (١)..... ٥٥
الدرس الثامن: الوحي هو المصدر الوحيد للقرآن الكريم (٢)..... ٥٩
أسئلة الحاضرين:..... ٦٣
الدرس التاسع: الإعجاز القرآني..... ٦٥
أهميَّة الإعجاز القرآني:..... ٦٩
أنواع الإعجاز القرآني:..... ٧١
امتياز المعجزة القرآنية على سائر المعاجز الأُخرى..... ٧٦
الدرس العاشر: الإعجاز العلمي في القرآن ٧٩
أهمية الإعجاز العلمي:..... ٧٩
المراد من الإعجاز العلمي..... ٨٠
المجيزون للتفسير العلمي والإعجاز العلمي..... ٨١
المانعون من التفسير العلمي والإعجاز العلمي..... ٨١
ضوابط اعتماد النظريات العلمية التجريبية في التفسير..... ٨٣
منهج الإعجاز ومنهج الإيقاظ..... ٨٤
أسئلة الحاضرين:..... ٨٥
الدرسان الحادي عشر والثاني عشر:..... ٨٧

صيانة القرآن من التحريف ٨٧
أدلة عدم وقوع التحريف: ٨٨
شبهات القائلين بالتحريف: ٩١
أسئلة الحاضرين حول موضوع صيانة القرآن من التحريف: ٩٤
الدرس الثالث عشر: الناسخ والمنسوخ ٩٧
نكات لابدّ منها: ٩٨
مجازية النسخ: ١٠٠
ثمرة معرفة الناسخ والمنسوخ: ١٠٢
أسئلة الحاضرين الخاصة بالناسخ والمنسوخ: ١٠٣
الدرس الرابع عشر: المُحكم والمُتشابه ١٠٥
الصحيح في المقام: ١٠٨
توجيه آخر للإحكام والتفصيل: ١١٠
سرّ قسمة الآيات إلى مُحكم ومُتشابه. ١١٠
فما هو سرّ وجود المُتشابه في القرآن الكريم؟ ١١١
الوجه الصحيح في الانقسام: ١١٢
اختلاف المحكم والمتشابه باختلاف القارئ. ١١٨
القرآن كلّه مُحكم وكُلُّه مُتشابه. ١١٨
أسئلة الحاضرين: ١١٨

الفصل الثالث: أبحاث في فهم القرآن

الدرس الخامس عشر: المراد من فهم القرآن ١٢٣
ضرورة الفهم: ١٢٥
تفسير القرآن لا يعني فهمه: ١٢٦
الدرس السادس عشر: أدلة فهم القرآن الكريم ١٢٨
الأدلة والقرائن العقلية والوجدانية على فهم القرآن: ١٢٨
الأدلة القرآنية: ١٢٩
الأدلة الروائية: ١٣٠
مراتبية فهم القرآن: ١٣٢
الدرس السابع عشر: أدلة المانعين لفهم القرآن الكريم ١٣٥
الدرس الثامن عشر: موانع فهم القرآن الكريم، أو أدلة الامتناع ١٤١

المانع الأول: القصدية والاتجاهية.....١٤١
المانع الثاني: الإصرار على اقتراف الذنوب والأُنس بها.....١٤٢
المانع الثالث: النظرة الجزئية المحدودة للقرآن الكريم والانكفاء على الدوائر الضيقة.....١٤٣
المانع الرابع: الانشغال بالوسائل المُوصلة عن المقاصد المطلوبة.....١٤٤
الدرس التاسع عشر: قواعد وأُصول فهم القرآن.....١٤٥
الدرس العشرون: القواعد الأُخرى التي لابدَّ من معرفتها.....١٥٠
علاقة قواعد فهم القرآن بمراتب فهمه:.....١٥٣
مدى انطباق قواعد الفهم على تفسير القرآن وتأويله:.....١٥٣
المصنفات التفسيرية وقواعد فهم القرآن الكريم.....١٥٤
الدرس الحادي والعشرون.....١٥٥
علاقة المناهج والأساليب التفسيرية بقواعد فهم القرآن.....١٥٥
مدى اكتمال قواعد فهم القرآن على مستوى النظرية والتطبيق:.....١٥٩
الدرس الثاني والعشرون: مصادر ومنابع فهم القرآن الكريم.....١٦٠
المصدر الأول: القرآن الكريم.....١٦٠
المصدر الثاني: الروايات.....١٦٠
المصدر الثالث: القرائن العقلية.....١٦٢
المصدر الرابع: جملة من علوم القرآن.....١٦٢
المصدر الخامس: المعاجم اللغوية الموثوقة.....١٦٢
المصدر السادس: العلوم الإنسانية.....١٦٢
المصدر السابع: التجارب العلمية.....١٦٢
المصدر الثامن: القدرات الذاتية والمُكتسبة.....١٦٢
الدرس الثالث والعشرون.....١٦٤
الفرق بين مناهج التفسير ومصادره:.....١٦٤
الفرق بين مصادر التفسير وبين المصادر التفسيرية:.....١٦٤
اختلاف التعاطي مع مصادر ومنابع فهم القرآن:.....١٦٤
الفهرس.....١٦٧